غسق الكراكي

سعد محمد رحيم

رواية
NOVEL

غسق الكراكي

سعد محمد رحيم

سطور
للنشر والتوزيع

غسـق الـكـراكـي

سـعـد مـحـمـد رحـيـم

Dusk of the crack

Saad Mohammed Raheem

الطبعة الثانية ٢٠١٧م

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي – مدخل جديد حسن باشا

هاتف: ٠٧٧١١٠٠٢٧٩٠ – ٠٧٧٠٠٤٩٢٥٧٦ – Email: bal_alame@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للدار والمؤلف سعد محمد رحيم، حسب قوانين الملكية الفكرية للعام ١٩٨٨، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الطرفين .

First Published by Dar Sutour For Publishing and Distribution
Baghdad - Iraq – Al Mutnabi street – Jadeed Hasan Basha Entry

Revised copyright © Dar Sotour And Saad Mohammed Raheem‘ The right of the Author of this work has
Been asserted in accordance with the Copyright‘ Designs and Patents Act 1988

هام : إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، أو محررها، أو الجهة الصادرة عنها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 – 1– 77322 – 364 – 3

إلى أصدقائي الشهداء

أكرم مالك

برهان مالح

خالد عزت

وموفق زكريا

نادرٌ وطيفيٌّ ومؤكد، مثل قبسٍ أزرق، ساطع الزرقة، يضطرب لجزءٍ من الثانية، بين موجتين معتمتين، ويتلاشى في الملكوت.

نادرٌ وطيفيٌّ وساخر، مثل صليل الفجر، يخرِّم شجر الخريف، في هنيهة صحوٍ، ويمضي مع الشمس.

نادرٌ وطيفيٌّ وجليل، مثل الكلمة في حضورها، وهي قائمة أبداً على حافة الغياب.

نادرٌ وطيفيٌّ ومحرِّض بوجوده، قريباً تحت طائلة الأصابع.. لكن من المستحيل، المستحيل الإمساك به، وهذا ما يجعل الأمر محزناً حقاً.

ذلك هو كمال الذي حلّق، كما ريشة الطائر المنتزعة عنوةً، ليرحل أخيراً في الأقاصي.

المفتاح

- ١ -

قال لي:

"حلم حياتي الكبير أن أكتب رواية".

وحين لم أعلّق، مدارياً دهشتي بابتسامة، أردف:

"أجل، فالرواية تساوي الحياة، ومن لم يترك رواية قبل أن يموت، كأنه لم يعش".

قلت:

"ومن يترك رواية؟".

قال:

"آه.. من يترك رواية، تُقرأ وتُحكى، فإنه لا يموت أبداً".

ران صمتٌ قصير قبل أن أقترح عليه:

"حاول".

هزّ رأسه مشفقاً، ربما من سذاجتي لطرحي مثل هذا السؤال، أو على نفسه لأن الأمر ليس بالسهولة التي أتصوّر.

"في ذهني فوضى من الأشياء والأفكار والعوالم بحاجة إلى أن تُنظّم لتكون".

في تلك اللحظة لمحتُ في لمعان عينيه سطوة من يخترق بنظرته الكائن إلى ما ورائه. كان يحدّجني ويعبرني إلى أفق آخر.. كان مغموراً بصمت اليوم الأخير من إجازته الطويلة التي امتدّت لشهرين، بعدما أصيب بشظيّة في معارك شرق العمارة.

"ثم هناك هذه الحرب التي لا تنتهي.. لا أقصد فقط ما يجري في الجبهة، بل حربي الخاصة، أنا، أيضاً".

سألته، وقد فاجأني قوله:

"مع من؟".

قال:

"حقاً.. مع من؟. لا أدري.. أنا نفسي لا أدري".

* * *

في مثل هذا اليوم، قبل سنة واحدة، استشهد كمال. وكان ينبغي أن تمر سنة واحدة حتى يتعتق الحزن، وتستسلم الأعصاب، وتسترخي الذاكرة.

سنة واحدة حتى تستكين الأسئلة، بتواطؤ مع الزمن، ربما، من أجل استمرارية تالية، لكن بوتيرة مختلفة، لأن دورة الحقيقة صمّمت أن تتواصل في مستوى آخر غير ذاك الذي عهدناه. فبعد سنة واحدة تكون الدموع قد جفّت. وصار واقعاً ما حسبناه، للوهلة الأولى، من إيحاء الكوابيس.

غادر كمال ولم يكتب روايته. غير أن روايته المؤجلة تكتبني الآن.. تفرض عليّ سلطتها الباهرة القاسية.. روايته/ الوصيّة تستدرجني إلى مغامرة البحث عنه. لكأنه على مسافة ممكنة منّي، وما عليّ إلاّ أن أسير باتجاهه؛ باتجاهه الملغز، المراوغ المغري.

أكتب هذه الرواية لأثبت بأن كمالاً قد عاش، وأنه بمعنى من المعاني لم يمت. ولكن.. هل أستطيع؟. هل أستطيع أن ألملم هذا النثار؟. أن أرمِّم تلك الثغرات كلها التي، لا شك، أنه عافها لي؟. أن أرتِّب هذه الفوضى، التي اعترف هو، بأنها فوضى في حقيقة الأمر.

لم يولد كمال من جملة اعتراضية مشتطّة. لم يطل مصادفة من خضمّ مناورات لعبة بلاغية. ولم يكن تخريجاً من تخريجات ذهن واسع الخيال. فكمال رجل من هذا العالم. عاش كما عاشت، قبله ومعه، مليارات من البشر، وكما ستعيش وتموت مليارات أخرى.. جئت به من الكون الأرضي لأدخله كون الورق، وأجعله شخصية في (رواية).

الرواية صنيعة خيال. وهنا المفارقة؛ أن أحيل كائناً بشرياً من لحم ودم، إلى بطل روائي.

غالباً ما تتمرد شخصيات الروايات على مؤلفيها، وتصبح صعبة السيطرة عليها. ولكن كيف يكون الأمر مع شخصٍ حقيقي، ولد في مكان معلوم هو (السعدية).. في بيت من بيوتها الطينية الواسعة القديمة، ولعب في أزقتها، وخبر رؤيا حريقه

الأول لمّا التهمت النار أمّه وأخته في ضحى يوم قاسٍ بعيد. وأنهى تعليمه الأولي في مدارس بلدته، وتخرّج في الجامعة المستنصرية ببغداد. وقاتل في ضمن قطعات الفيلق الثالث، وجُرح على حافات هور العمارة، واستشهد وهو يقذف الأمريكان، في ساعة مطر زيتي، بالقنابل اليدوية، في الكويت.. فكمال اكتملت بموته دورة حياته.

هل ستطاوعني مثل هذه الشخصية؟ أم أنها ستخاتل، وتتملّص من أية محاولة لاقتناصها في شبكة الكلمات؟.

كان كمال عصيّاً عليّ في حياته. لكن، هل سيكون كذلك أيضاً، وأنا أمام ركام من أوراقه وأشيائه التي أظن أنه تركها لي، في صندوقه، أو عند الآخرين؟. وهل ستعينني ذاكرتي، وذاكرة أصدقائه ومعارفه، لأحقق الفرصة التي سلبتها منه الحرب؟. أقصد أن أكتب روايته؟.

ما يقلقني هو؛ كيف؟. بأية لغة؟. وبأي منظور؟. واستناداً إلى أية قواعد للصنعة يمكنني أن أبتكر كمالاً في رواية؟. كمال الذي كان قريباً منّي إلى درجة، لم أكن أعتقد بأنني بحاجة إلى تجربة سبر دواخله، لأنه، ها هنا، إلى جانبي منذ سنين سحيقة.

* * *

يتصاعد صوتُ أبي الشجي مع إيقاع الدفوف.. صوته الشائخ المتكسِّر العذب، بتلك النغمة الراجفة من الخشوع.. أراقب أطراف أصابعه النحيلة، الطويلة، وهي تتراقص على القرص

الجلدي المشدود للدف، تتناوب في الضرب عليه مع أسفل راحته الناتئ، وشفتاه السمراوان الدقيقتان تنفرجان وتنطبقان بكيفية مؤسية.

أبصر الدمع الطفولي المنبثق من عينيه الرماديتين الباهتتين. ورأسه المُحاط بالعمامة المكّية المذهّبة يهتز عن يقين مشبوب.

أقبض على المفتاح وهو في جيبي، كما لو أنني أخشى عليه من الاختفاء.. أدخل البيت لإحضار الشاي للضيوف.. ترفع إليّ سارة عينين تحبسان أشياء كثيرة، وهي تناولني الصينية المثقلة بالكؤوس الصغيرة.

"سارة، ما لكِ؟".

"من المؤسف ألاّ نصل إلى الوضوح إلا بعد فوات الأوان".

"ماذا تعنين؟".

"خذ الشاي. ضيوفنا كثر".

أعود إليها مرّات ومرّات. أحمل (الاستكانات) وأوزِّعها.. خلقٌ بأعداد كبيرة، تنير وجوههم الأضواء الشاحبة لعشرات الفوانيس بعد أن انقطع التيار الكهربائي.. الأطفال ينظرون متلمظين، يبغون لأجسامهم النحيلة دفئاً في ليل شباط البارد هذا.

"حالاً، ستتشربون جميعاً".

ويتحلقون حولي. يكركرون وهم يحتسون شرابهم الساخن. وحالما يعلو وقع دقّ الدفوف، وتصدح الحناجر النشوانة، يكفّون عن الضوضاء.

يستحوذ سيل اللغة البراقة.. الشعاع الهاب من الأغوار العتيقة، النقيّة.

(اللهم عطِّر قبره الكريم، بعرفٍ شذيّ من صلاة وتسليم.. اللهم صلِّ وسلّم وبارك عليه)

الصوت يقدم من عشر حناجر كما لو كان من حنجرة واحدة.. يتلوّن مع صحوة رائحة البساتين، والنزيف النوراني للقمر السابح فوق البيوت.

هكذا رغب أبي وأصرّ؛ أن يحيي سنوية رحيل كمال بمنقبة نبوية.

أتحسس المفتاح ثانية.. ملمسه البارد يهرِّب شحنة مكثفة من قشعريرة عبر مساماتي، وأشعر بدمي يتأين فينتفض جسدي.

* * *

عصراً تسلّقت النخلة، وفكرة واحدة معرّشة تصعد بي. أو هو سؤال ملحاح؛ ما الذي يسوِّغ لي ارتياد أرض كمال المجهولة؟.

عاينتني أمي بعينيها الكليلتين:

"ماذا تفعل هناك؟".

"لم أصعد النخلة منذ زمن".

"ليس هناك تمر".

"هناك المفتاح".

"ماذا؟".

بين السعف الكثيف، في ذلك الاتساق الشائك رحتُ أبحث.. تخدّشت أصابعي ونزّ منها الدم.. قطرات صغيرة استقرّ بعضها على أوراق السعف.. وكان عليّ أن أدور حول النافورة الخضراء ـ هكذا كان كمال يسمّي تاج النخلة ـ ومرّ وقت طويل حتى شعرت بالوهن في كتفيّ، وأخيراً وجدته ساكناً ومغبرّاً بين طيّات الألياف.. التقطته ووضعته في جيبي.

"لا تتوقع العثور على كنز سليمان".

"ولماذا تفترض أنني سأفتح صندوقك يوماً ما؟".

بات القلب يقرع الأضلع مثل سجين قديم ضاق ذرعاً بالجدران.

* * *

قبل سنة واحدة، وكان القتال قد توقف لتوِّه، جاؤوا بجثته.. أحسست بغصّة لمّا رأيت التابوت فوق السيارة التي استدارت حول حديقة البلدة الصغيرة واتجهت نحو مركز الشرطة.. كنتُ في المقهى فقمت مثلما قام الآخرون.. قام كل من كان يجلس

هناك، وكالعادة أسرعنا في السير، ومن ثم شرعنا نركض. فكلما أقبلت سيارة، وفوقها تابوت ملفوف بالعلم الوطني واتجهت نحو مركز الشرطة كنّا نقوم ونركض.

إذ ذاك يشخب الدم في الرأس، وتستيقظ الخلايا الراكدة، ويخرج القلب عن طوره.. يسري الوجل.. تيار شجي من الوجل يكتسح جغرافية الروح، ومعه تنقذف أسئلة كاوية، وتلهج الألسنة بكلمات الضراعة.

قرأوا الاسم على مقدمة التابوت وهو ما يزال فوق السيارة والتفتوا إليّ.. تهامسوا والتفتوا إليّ.. أدركت كل شيء في جزء من الثانية، ومن غير أن أسمعهم أو أسأل.. لم أكن، قادراً، لحظتها، على السماع والنطق.. لم أكن قادراً حتى على البكاء.. كنتُ أعلم أن البكاء سيجيء في ما بعد.. في ما بعد.

* * *

الترانيم تُحمل على محفّة صمتٍ شفيف، وأبي مشدود الأسارير.. في عينيه حدّة أليفة، وصوته مبحوح.. بحّته مؤثرة طاغية.. الآذان صاغية، والدقائق تتسلق سلّم الظلام.. يهيج هواء مشبع ببرد راعش.. الحيوية تدبّ، وفي الجوار يضرمون ناراً.. يقرِّبون منها الدفوف لتنشدّ جلودها.. تتلوى الجذوع، والشيخ عبد العليم يواري ضنى سنواته السبعين.

(فما جال في سرّي لغيرك خاطرٌ

ولا قال إلا في هواك لساني

فإن رمتُ شرقاً أنتَ في الشرق شرقه

وإن رمتُ غرباً أنتَ نصبُ عياني

وإن رمتُ فوقاً أنتَ في الفوق فوقه

وإن رمتُ تحتاً أنتَ كلُّ مكانِ)

أقلِّب المفتاح بين أصابعي، وأقول في سرّي؛ أية كائنات مجهولة سيُكتشف أمرها؟ وأعرف أن ديدن المفتاح هو أن يُفاجئ. فكل مفتاح، حصانة لأسرارنا المربكة، ينطوي على وعدٍ باحتمالات شتى، متضاربة، وينبئ عن غابة من توجس.

مفتاح كمال من فضّة صافية.. صغير وأنيق.. طرفه الذي يُمسك به دائري.. محيطه محزّز تتوسطه بؤرة من فصٍّ أزرق ـ عليه خدش ـ تنبثق منه خطوط رفيعة وصلبة، مكوِّنة شكل شمس متوهِّجة. أما طرفه الآخر فينعتق متخذة هيئة نتوء مستطيل. وبين الطرفين امتداد غليظ، مستدير، يوحي بالقوة.

* * *

تراخت النغمات ثم علت.. تشعّبت متنافرة للحظة ثم اندغمت.. انسابت بهناءة في الصمت الذي فُرض. ورفّت الأغصان والدشاديش مع هبّة نسمة مندفعة في أوج تسامي أشجان الدفوف.

هرعت إلى سارة.. فكلما أغرقني الانفعال هرعت إلى سارة.. كانت عيناها تكابدان في لظى الأسى والأسئلة.. تشيعان نظرة، من العسير تصديقها لشدّة صدقها.. الوجه ظلّ ثابتاً في اختلاجة الحياء.. ارتفع الحاجبان، واتسعت الجفون ثوانيَ كشرارة برق.

أكنتُ حاذقاً في احتواء تعاريج الصدق بعريها الفاضح، قبل أن تستدير وتمضي بتباشير البكاء التي لاحت؟ ماذا تخبِّئين يا سارة؟ وماذا أستطيع أن أفعل أنا غير أن أحترم هالة الحسرة هذه؟.

لم أعد أسمع ما ينشد الدراويش.. بل أرى.. أرى تلكم العيون بتوقها المسفوح، وشكواها، والضباب الذي يستر أفقها المقلق.

أغمي عليها، يومها، لمّا ابصرت دمه اليابس على بدلة الميدان التي كان ما يزال يرتديها، وصاتت النسوة.. بكى أبي، وكنت أنا الآخر أبكي، واحتضنَ حسن التابوت وهو ينتحب:

"كمال، لا تتركنا حبيبي.. لا تتركنا"

وللمرة الأولى منذ زمن بعيد، بعيد، ألفيت الدموع تترقرق من عينيّ عارف.

* * *

القمر في استدارته الماسية يبثُّ شريطاً مضيئاً في عتمة الغرفة.. الصندوق، ثمة، مركون في الزاوية.. أمرر أصابعي على أصدافه الملوّنة، والطافرة مثل دموع كبيرة في شهيق

النور.. أحسُّ برفيف روح كمال يلامس ظلال روحي.. ومن خلل النافذة أخترق الغلالات اللاصفة لأنظر إلى نخلته الواقفة بجلالها الكئيب.. أتحسّس الصندوق بالرعشة النائحة التي تسري في العصب السرّي لعقلي.. عقلي الذي فقد سلامه بعد نهاية الحرب ـ وتلك مفارقة ـ تحت وطأة الحضور الكثيف لكمال الباحث عبري عن روايته.. الصارخ في البرية ـ كمن يطلب الثأر ـ لاستدراج الكلمات. تماماً مثلما كان يتأهب لاقتناص الزرازير بالأشراك المتقنة التي كان يجيد صنعها من خوص النخيل.

- ٢ -

في حوض العجلة.. على أكوام الأشياء، كان يجلس مع ثلاثة جنود آخرين.. لم يتبادلوا سوى كلمات قليلة، والصحراء تعتم رويداً رويداً مع هبوط مساء الشتاء، وقدوم طلائع سحابات الزيت المحترق.

بدا وكأن السائق ضلّ الطريق، فمنذ ساعة وهم يدورون في هذا الخلاء الشاسع من دون أن يلتقوا بأحد، أو يمروا بمكان يسكنه بشر.

انفجرت قنبلة على مسافة أمتار.. غيّر السائق مسار العجلة.. انفجرت قنبلة ثانية أبعد من سابقتها.. زاد السائق من السرعة.. انفجرت ثالثة، شاهد دخانها يتصاعد خلف العجلة، وشظية تمزِّقُ قماشة الحوض.

فكّر كمال أن يزحف إلى نهاية الحوض ليتكلّم مع السائق، ومع الضابط الذي يجلس إلى جواره في صدر العجلة.. وضع راحة يده على صندوق صلب، والتفت بنصف جذعه فارتجّ بصوت هائل، ناري كل شيء، وانقذف كل شيء.

رفع رأسه، وأحس كما لو أنه اجتاز هوّة خارج الزمان.. كانت العجلة تحترق على مسافة أربعة أمتار منه، وهو ممدد على بطنه، وحزام بندقيته ما يزال ملفوفاً حول جذعه.. لم يخطر له أنه ربما أصيب.. أراد فقط أن يستعيد رؤيا الانخطاف تلك؛ الانفجار، وخروجه من جوف الحريق.

طنين غريب يلفُّ الآفاق.. طنين نازف في الفاصلة المصمّتة بين قيامتين - قيامة الهباب وقيامة الصهيل - هبابٌ ينصبُ خيمته الهائلة، وصهيلٌ يجلدُ الصحراء. أما البحر، فيسمع كمال نواحه المؤسي الرتيب، ولا يراه.. إنه هناك. على مقربة منه. ذاهلٌ في السواد. وسادرٌ في الغموض.

يُخرج كمال سيجارته الأخيرة.. يُشعلها على حافات غربته.. غربة الحريق وغربة البحر الذي يحسّه هادراً في صدره.. لكأن البحر بين ضلوعه.. هديرٌ عاتٍ يفاقم الغيظ والوحشة.

وحشة الغربة ونذر الرحيل. وقبل أن يكمل تدخين سيجارته يرى ست طائرات سمتية تطلع من سواد الزيت المحترق.. ست حشرات ضخمة تحطّ في شكل قوس، وينزل منها عشرات الجنود.. يركضون، ويشرع المطر بالانهمار.

يرى كمال نفسه وحيداً أمامهم، وبندقيته فارغة، فيلقيها أرضاً.

كانت المراوح ما تزال تدور، وكانوا قادمين نحوه.. تحسّس في جيب قمصلته الرمانتين اليدويتين.. كان وحيداً، ولكن ضاجّاً بصأصأة الزرازير، وبعطر ورود الرازقي التي أحبّها. وتهيأ له أن على أطراف أصابعه بقايا من رذاذ طلع النخيل. وفي هذه اللحظة، تذكّر أمرين- ربما - سارة والمفتاح.

كان في المطر رائحة الزيت.. تخيّل الكراكي مداهَمةً بلون الموت هذا - في سعديته البعيدة - بين القصب وأسيجة البساتين.. بين جدول داود وشطّ ديالى.

لم يدر بخلده، في ذلك الموقف، أن يرفع يديه، ولم يفكّر بالهرب.. كان يتحسّس في جيب قمصلته الرمانتين اليدويتين، والمطر ينهمر، والمساء يتحدر مبكّراً.

ما كان كمال يشعر بالسعادة، أو بالتعاسة، أو بالخوف، أو بالفرح، أو بالحزن، أو باليأس.. كان كمال غاضباً فقط.

أكادُ أراه، الآن، في احتدام غضبه، مع حدِّ التوتر حيث يصبُّ التفكير والشعور والإحساس والرغبة في مجرى واحد، وحيد.. نحو غاية بعينها.. يُختزل الكون والحياة والوجود والمصير في ذات، وفي ما يهدِّد هذه الذات... شيئان.. قطبان.. عنصران.. عالمان.. الـ (أنا)، والـ (آخر) الذي يسعى لإلغاء الـ (أنا).

كان الحريق، هذه المرّة، يحاصره.. مرأى النار المضطرمة، والتنانين التي أخرجت ألسنتها وصنعت قوس الموت.. وأبصر كمال، في لحظة تجلٍّ، حبيباته الفزعات تلاحقهن كائنات الدخان...

قال في سرّه إذاً هو الكابوس.. كان الكابوس- أبداً - شيئاً مبهماً - عصيّاً على الإدراك.. شيئاً قاتماً ووحشياً وكريهاً.. كان الكابوس ثعالب رمادية بأنياب من نار.. مخلوقات بشعة تثير الرعب والغثيان....

بات الكابوس، في ذلك الجزء المضيء من ذهن كمال كلمة، وتذكر ما قاله هنري ميللر ذات مرة، وتذكّر دهشته يومها حين قرأ مقولته، لكنه يعرف الآن، لماذا قال ميللر ما قال: (أميركا هي الكابوس المكيّف الهواء).

كانوا مخلوقات رمادية مقزِّزة أولئك الذين هبطوا من السمتيات واتجهوا إليه. وكان ما يزال يتحسّس القنبلتين في جيبه.

استلّ واحدة.. وهو يسحب حلقة الأمان تذكّر حريقه القديم.. وهو يدور نصف دورة ويقوِّس ظهره، ماسكاً الكرة المحزّزة بقبضته العنيدة أيقن أنه سيُشفى حالاً من كابوس النار.

كان البحرُ قريباً.. كان الماء ينشج بحرقة وعذوبة.

أكاد أراه.. يدور نصف دورة، ويقوّس جذعه.. يحشِّد الدرجة القصوى من الغيظ والقوّة.. يصرخ ويقذف بالرمانة اليدوية.. مراوح السمتيات ما تزال تدور أمام خلفية من غمامة قاتمة ورماد وحشي. والجنود الاميركان يُوقفون في ذهولهم، هرولتهم المتعجرفة، وينحنون.. ينحنون لاتقاء الشيء القادم، فتنكفئ بنادقهم.

الشيء اللامتوقع، الطائر، الذي سينفلق، في الحال، يبعث صوت انفتاح قفل الموت.. موتهم.. صوت صاف، حازم، يُسمع على الرغم من الضجيج الذي يُحدثه تهشّم الغروب. أما الانفجار

فيبعثرهم مثل نافورة، في حركتها اليائسة، الأخيرة.. وينبطح كمال.

أكاد أراه.. جسمه الباسق يقوم من انبطاحه.. يدور نصف دورة أخرى ويتقوّس.. وبينما الشيء المحرق الطائر يحلق في أعلى ذروته الفيزيائية، وصرخته الثانية تتصادى في الآفاق، تتواصل رشقات رصاص.

أكاد أراه.. جذعه الذي تقوّس يستقيم الآن.. اليدان تُشرعان.. وتتفتح أزهار الجروح، ويتلألأ الدم.. جروح كثيرة، وصوتُ انفتاح قفل الموت يُسمع.. يسمعه الأميركان بهلع فيحاولون الانبطاح.

على الطين الأسمر يفور الدم.. دمٌ كثيف، جميل.. دمُ كمال.. يئز الطين حين يمتزج به، والأصابع تتقلص.. تنفذ في الأرض.. تترك بقايا عرق، ورائحة الرازقي، ورذاذاً من طلع النخيل.. الكف كلها تغوص، وتبقى ثمة، مثل جذر.

الجندي الآخر الذي ظل ساكناً يحدِّق بنصف عين نهضَ من رقدته الطينية.. دنا من كمال.. كانت السمتيات قد غادرت باتجاه البحر، واختفت في دوامة الهباب.. خلع قمصلته ليتخفف من ثقلها، وأبقى جعبتى عتاده... أمسك بالبندقية الملقاة - بندقية كمال وعلّقها على كتفه، وانحنى ليقيم كمالاً.. كان الدم مخلوطاً بالطين.. شاله على الكتف الأخرى، ومضى في ليل الصحراء.

- ٣-

من خشبٍ أثبت أنه يقاوم قوارض الزمن هو الصندوق؛ صندوق كمال.. أزرق، مرصّع بخرزات ملوّنة، كنا نسلخُ أنا وعارف معه ساعاتٍ، في أيام طفولتنا، نحاولُ عدّها.

اقترح أبي في البدءِ أن يبيعه، ويشتري بثمنه أشياء مفيدة لكمال.. ملابس مثلاً، أو لعباً جميلة تُسلّيه، وأقنع أمي بهذا، غير أن كمالاً فاجأهما:

"أريد الصندوق.. أريده أن يكون لي.. أمي كانت تحبّه، وتحفظ فيه حوائجها".

ولم تكن حوائج أمّ كمال في الصندوق سوى كيس حنّاء، وقلادة فضية، وثوب قديم وردي، مطعّم بزهور بيض دقيقة، يبدو أنه كان من بقايا هدايا عرسها، ومصباح نفطي صغير بنّي اللون، وعصّابة سوداء منمنمة.

باعت أمي القلادة الفضية، والعصّابة المنمنمة، والمصباح النفطي الصغير بدينار واحد لغجرية عجوز كانت تمر على البيوت مع بداية ذلك الشتاء المنسي... تبيع وتزرع أسناناً ذهبية للنساء، وأعطتها بلا مقابل الثوب الوردي وكيس الحناء.

دسّت أمي الدينار في جيب كمال:

"هذا لك".

"لا أريد. ماذا أفعل به؟".

"اشترِ ما يحلو لك".

"لا أريد".

قال أبي:

"لا تلحّي عليه.. هاتِ الدينار".

وفي اليوم التالي اشترى أبي لكمال حذاءً جلدياً أسود جعلنا، أنا وعارف، ننظر إليه بحسدٍ خفي. وحُمل الصندوق إلى الغرفة التي صرت أتقاسمها منذ ذلك الوقت مع كمال، ووُضع في الزاوية القريبة من سريره الذي احتل الجهة الملاصقة للنافذة، كما رغب هو.

قالت أمي:

"خلِّ فيه ملابسك وكتبك".

ومنذ تلك الساعة أصبح الصندوق العالم الخاص السرّي لكمال، حتى كان ذلك اليوم الذي تسلقتُ فيه النخلة، وعثرتُ على المفتاح، وهممتُ بفتح الصندوق.

المفتاح بين أصابعي.. أشدُّ عليه لأتأكد من حقيقته.. أخاف أن أشرع كفي ولا أجده. والصندوق في الزاوية عينها بصمته المثقل بالوعود، حيث لم يفكر أيُّ واحدٍ منّا بفتحه منذ استشهد كمال قبل سنة.

أجلس إزاءه والوجل فيَّ مثل كومة من نمال صغيرة.. أتوجس من الحريق المرتقب... رؤيا النار التي أخذت عائلة عمّي رشيد إلى الضفة الثانية المجهولة.

تنقضي دقائق مشبعة بالحيرة قبل أن أقوم ـ هكذا ـ موقفاً دينامية التفكير بفعلٍ إراديٍّ صارم وحاد.. قابضاً على القفل العتيق الصدئ.. دافعاً بالمفتاح إلى داخل فتحته الطولية المستديرة، ومُديراً أصابعي بقوة، كما لو أنني أسعى لكمّ فم التردد، ورافعاً الغطاء الخشبي العريض.

صرَّ الغطاء وأنا أرفعه.. أمسك بي دوار غريب حتى خيّل إليَّ أن تلك الأشياء أشبه ما تكون بضباب أزرق يتماوج. ولاحظتُ أنني لم أنر الغرفة، غائصاً بالرغم مني في ظلام شبحي. ولكن لمّا ضغطت على الزر وشعّت النيونات، ظهرتْ محتويات الصندوق.. راعتني أكداسها المكوّمة بفوضى لا أبالية، وفوقها كلها كتاب الله في مجلّد أرجواني أنيق.

إنها بقايا رجل غادرَ، أيضاً، تحت وطأة رؤيا النار إلى الضفة الثانية، المجهولة.. أوراق مترعة بالكلمات.. أوراق بيضاء.. أشرطة تسجيل.. قوارير عطور.. قصاصات مقتطعة من صحف ومجلات.. كتب.. صور ملوّنة.. صور بالأسود والأبيض.. ألبوم صور.. رسائل.. أقلام.. وأشياء أُخر.

التقطت حزمة من الأوراق وطفقتُ أقرأها.. اخترق جسدي تيار من صقيع راح يتوالد ويتناوب في خلاياي، ويخلخل آليات تفكيري.

(ما هذا الذي كتبت بحق السماء؟).

أعدت الأوراق إلى موضعها وأغلقت الصندوق. ومن لحظتها أيقنت أن مهمتي ليست يسيرة.

* * *

في اليوم التالي فتحتُ الصندوق مرّة أخرى، وأخرجت الأشياء كلها، قاصداً تنظيمها.. إنه عالم مدوّخ ينتظر التشكّل من جديد.

أحصيت أربعة عشر كتاباً [القرآن الكريم.. ألف ليلة وليلة (بمجلدين).. ديوان المتنبي (بمجلدين).. ملحمة جلجامش.. مسرحية هاملت لشكسبير.. أشعار طاغور.. ديوان بدر شاكر السياب (الجزء الأول).. رواية (للحب وقت، للموت وقت) لأريك ماريا ريمارك.. رواية (ثرثرة فوق النيل) لنجيب محفوظ.. رواية (مائة عام من العزلة) لغابريل غارسيا ماركيز.. كتاب (الإنسان ورموزه) لكارل غوستاف يونغ.. مقدمة ابن خلدون.. كتاب (آفاق الفن) لالكسندر إليوت.. وكتاب آخر بلا غلاف أو عنوان يشير إليه.. أوراقه صفر قديمة - تبيّن لي فيما بعد أنه كتاب الطواسين للحلاج].

وكانت، في كيس نايلون، ثلاث قوارير {عطر علامة كشمير.. عطر علامة تي روز.. كولونيا علامة ريف دور} ومعجون أسنان علامة عنبر، وأربع علب صغيرة من شفرات الحلاقة علامة أسترا، وشامبو برائحة التفاح.

كان هناك ألبوم ضخم للصور، وصور أخرى مبعثرة.. بعضها قديمة باهتة، وبعضها جديدة ملوّنة. ومنها صورٌ يظهر فيها بالزي العسكري. وظرف أبيض فيه صور شخصية بأحجام متباينة ابتداءً من حجم الطابع الصغير. وحزمة رسائل مشدودة برباط أحمر. وقصاصات مقتطعة من الصحف والمجلات (قصائد وقصص ومقالات وصور). وقدّاحة يابانية زرقاء، وأقلام جافة كثيرة، وقلم حبر واحد علامة شيفرز. وعدد من نكتفات الصور الملفوفة. وخمسة وعشرون شريط تسجيل نصفها لفيروز ونجاة الصغيرة. وأوراق.. أوراق كثيرة تتعرج فيها الكلمات، ودفاتر مملوءة بكتابات. وأوراق فارغة فاغرة بياضها بنهم لكلمات مؤجلة كان كمال، لا ريب، يرغب بكتابتها. وألفيتني إزاء ندائه الثاقب المطلسم وهو يصدر من أحراش الورق، وأصداء غريبة راحت تتلاحق من شعاب شتى لتتقاطع برنين غاوٍ متصل.

لأيّما محنة عصيّة يستدرجني كمال؟ وهل بمقدوري أن أقفل الصندوق الآن، وأرمي المفتاح في النهر، وأنسى؟.

غول الحرب انسحب إلى كهفه المقيت منهكاً، مخذولاً، ملوّث المخالب، وبقينا نحنُ. لذلك قررتُ أن أكتب روايتك يا كمال.. أن أستنطق البشر والشجر والحجر والشوارع والصور والأوراق، وكل شيء عرفكَ وعرفته.

"المفتاح هناك في أعلى النخلة.. مفتاح صندوقي".

"ولماذا تخبرني؟".

"قد تضطر يوماً ما إلى أن تصعد النخلة وتأخذه".

"وما حاجتي إليه؟".

"ربما دفعك الفضول".

"أبداً".

"قلت، ربما".

"ولكن، لماذا تخبرني؟".

"يجب أن يعرف شخصٌ ما موضع المفتاح".

"لماذا؟".

"هي الحرب".

"وأنا معك في المعمعة".

"أعرف، ولكن لا بد من أن يرجع واحد منا".

"وافترض أننا نحن الاثنين .....".

"لن افترض".

"قل لي.. ماذا تخفي هناك؟".

قهقه.. ثم لاح في عينيه طيف حزين، وبدأ بالكلام عن شيء آخر.

* * *

قلت لعارف، وقلت لسارة:

"سأكتب رواية كمال".

سألني عارف عن المادة المتاحة لي للكتابة.. وقال:

"المهم هي الطريقة.. طريقة الكتابة.. الأسلوب".

أما سارة فرنتْ إليَّ باندهاش، وكأنها لم تستوعب، للوهلة الأولى ما قلت، ومن ثم قالت:

"نعم.. هذا أقل ما تستطيع أن تفعله من أجله".

وأخبرت نبيلاً بمشروع كتابة الرواية، فحذّرني من إسباغ الهالة الأسطورية عليه، قال:

"كمال كان إنساناً بالمعنى الحرفي لكلمة إنسان - كان ذكياً ومثقفاً وشجاعاً.. أي أنه لم يكن عاديّاً حتى في الطريقة التي اختارها لاستشهاده. وأنت تتذكّر تلك الجرأة الأبدية التي طبعت حياته، ولكن لا ترسم له صورة مضللة.. صورة رجل خارق جاء بالمعجزات".

"ماذا تعني على وجه التحديد؟".

"ما أعنيه هو أن كمالاً مثلنا جميعاً، كانت له أخطاؤه وشطحاته وخطاياه".

"أعرف هذا".

"ذات مرة، أخذ عارف قلماً، وحدّد على ورقة نقطتين متباعدتين، كتب على الأولى (الإنسان المثالي جداً)، وعلى الثانية كتب (الإنسان المأزوم جداً، ذهنياً وأخلاقياً). وقال نحن البشر جميعاً، يقف كل منا في نقطة ما بين النقطتين، فكلما اقتربنا من الأولى كنّا أسوياء، وكلما ابتعدنا لنقترب من الثانية كانت فينا أعراض جنون ولا أخلاقية".

"وأنت في أية نقطة بين النقطتين تضع كمال؟".

"تلك مهمتك الآن.. روايتك ستكشف لنا ذلك".

"كان لكمال كثيرٌ ممّا يميزه".

"لا أنكر هذا.. وعليك أن تجد هذا الذي يميّزه، ويجعله مختلفاً. ومرة قال لي عارف؛ إن الحقيقة الأولى هي أن كل فرد في هذا العالم هو حقيقة مستقلة، ومتحرِّكة، ومراوغة وقائمة بحد ذاتها.. ليس هناك اثنان يمكنهما أن يتطابقا أبداً".

"أتدري يا نبيل أنك معجبٌ بعارف؟".

"نعم، لأنه عارف".

ـ ٤ ـ

يتهيأ لي، أحياناً، أن كمالاً لم يكن سوى كائن حلمي، عبرَ قبواً سرّياً ليظهر على سطح ذهني، على الرغم من أكثر من عشرين عاماً قضاها معي في بيت واحد، وغرفة واحدة. بيد أن صورتين له تقفزان إلى المقدّمة الحسّاسة داخل رأسي كلما تذكّرته، أو ذكّرني به شيء ما، أو أحدٌ ما.

صورتان متناقضتان، تكاد تنفي إحداهما الأخرى، في الوقت الذي تحقّقان الاكتمال معاً، بوشيجة من الصعب تحديدها.

كمال- الطفل، وهو يهشّم الثلج في باحة الدار، تحت النخلة، من أجل أن يصنع دمية لسارة.. وكمال- الطفل، أيضاً، وهو بين يديّ ذلك الرجل، المفتول العضلات، يصارع من أجل الانفلات، ودخول البيت الذي يحترق.

ولعلّها حيلة بلاغية، تلك التي تجعلني أمدُّ خيطاً من دمٍ يمتزج بالطين، بين الثلج والحريق.. بين الماء والنار. غير أنّ الصورة النهائية تبقى رجراجة، يغلّفها الدخان، إذا لم استشعر العلاقة المعقّدة، الخفيّة، بين هذه الأشياء كلها، وأشير إليها.

قطع..

في ذلك الشتاء الأبيض البعيد صار كمال مغرماً بكسر الجليد المتكوّن فوق الجدول الصغير المحاذي للبساتين.. لم يكن مرّ سوى أشهر قليلة على مأساة الحريق حين داهمنا الصقيع، وطوّق البلدة، وغيّر ألوان معالمها.

انتزعُ ذلك الصباح من متاهة الاكتظاظ الاعتباطي للصباحات الراحلة - أظنّه كان صباح يوم جمعة - والبلدة متسربلة بضباب شفيف.. راكدة في الزمهرير.

"الدنيا باردة".

"لا عليك".

"ماذا تفعل؟"

"ألا ترى؟".

ألواح من الثلج أحضرها من الجدول، وجلس يهشِّمها على بلاطات الباحة القرميدية، وكفّاه المحمرّتان لا تكادان تطاوعانه.

"أرى، ولكن حقاً ماذا تفعل؟".

"أصنع شيئاً ما".

سألتْ سارة:

"وما هو هذا الشيء؟".

"سأسوّي منه دمية لكِ".

"دمية؟!".

"دمية، ستحسدكِ عليها البنات".

"ولكنها ستذوب".

دارت كرتا عينيه في محجريهما بقلق، ونهض ليداري خيبة ساخرة فرحتُ أضحك، وضحك عارف حتى كاد يختنق، أما سارة فلم تضحك.. ربما لأنها شاركته مشاعره بخيبة الأمل.

ثم أينع في كمال شغفٌ بالطين.

قال: "الطين لا يذوب". وقال: "سأسوّي لكِ في كل يوم دمية". وقال: "سأجعل دمية اليوم أحلى من دمية البارحة، ودمية الغد أحلى من دمية اليوم". وقال: "لا تنزعجي.. دعي عارفاً يحطِّم دُماكِ، فكلما حطّم لكِ واحدة سوّيت لكِ اثنتين".

وتناثرت قطع الطين في كل مكان من باحة البيت حيث أدمى يده بالسكين التي كان يستخدمها لنحت أجزاء الجسد الطيني فاختلط الدم بالطين وامتزجا. فقالت أمي بعد تردد، وبنبرة حانية:

"ابني.. لماذا تتعب نفسك؟ سارة سنشتري لها دمية من بلاستك لا تنكسر، ولا تضطرنا إلى كنس الباحة في كل يوم".

منتصف تلك الليلة جلست أتسمّع.. كان كمال ينشج في الظلام.

استدراك:

جاء أبي، كعادته، قبل صلاة العصر، من المطحنة التي يعمل فيها منذ أربعين سنة.. كان على قميصه بقايا طحين، ورائحته.. رائحة الخبز المرتقب؛ الخبز المحاصر.. قالت أمي:

"لم يعد في البيت خبز".

كان التعب على وجه أبي، والألم.. قال:

"بإمكاننا أن نشتري ثلاثة كيلوات طحين".

ذهب عارف إلى السوق، وعاد بكيلوين ونصف.. قال:

"الأسعار ارتفعت".

قال أبي:

"كيف.. هذا الصباح كان سعره.. بكم؟".

قاطعته أمي:

"حصار ظالم، وتجّار ظلمة".

قالت سارة:

"سنخلطه بطحين الشعير".

وسأل أبي عن الرز.. قالت أمي:

"نفد قبل أسبوع".

قال أبي:

"الله كريم".

وأنا.. لم أقل شيئاً.

فاحت رائحة الخبز، والمرق كان ساخناً، بحبات بطاطا قليلة، ومن دون لحم. غمسنا الخبز في المرق، تحت ضوء الفانوس.. قال أبي:

"للشعير فوائد كثيرة".

أضاف عارف بتهكّم خفي:

"وثقلٌ، كأنه الحجارة في المعدة".

ضحكتْ سارة، وغضب أبي.

"إنه نعمة الله".

قالت أمي:

"الحمد لله".

وطلبَ حسن نصف رغيف إضافي.. قلت:

"سأترك نصف رغيفي، فأنا لا أشتهي".

اعترضت أمي، وحسن هزّ رأسه رافضاً.

قمت، تاركاً نصف رغيف، التقطه عارف فأمسك بيده حسن.

قالت أمي:

"المرحوم كان يحب خبز الشعير".

جثم صمت كثيف، فطفقت أمي تسرد قصة قديمة عن كمال:

(قال لي: "خالة، اشتهيت خبز الشعير". فقلت بِحيرة: "خبز الشعير؟! معقول؟!". وضحكتُ وقلت: "سأوصي عمّك أن يجلب لنا طحين شعير". فالتفت الى سارة وقال لها: "ألم تأكلي قط، خبز الشعير؟". قالت سارة: "لا". فقلت لهما: "عندما كُنت صغيرة في عمركما لم نكن نأكل خبز الحنطة إلاّ في الأعياد والمناسبات". وسألتْ سارة: "كيف هو طعمه، خبز الشعير هذا؟". فقال لها كمال: "أمي كانت تخبزه". فأعادت سارة سؤالها.. قال كمال: "مثل طعم الطين". وصاحت سارة بإنكار: "ماذا؟". وقهقهتُ، وقال كمال: "إنه لذيذ.. لذيذ").

انتهت أمي من سرد قصّتها، وكنتُ ما أزال واقفاً.. رمقتُ سارة خفية.. كانت جامدة الأسارير، وضوء الفانوس ينير نصف وجهها.. قال أبي:

"ذاكرتكِ ما تزال قوية".

قالت أمي:

"وكيف تريدني أن أنسى؟".

* * *

أعودُ بكمال الى يفاعته، بنشوتها المكدّرة، تهيّجها رائحة المطر الغافية في جدران الطين. وقدما (هاجك) المفلطحتان تخوضان في الدروب الحافية.. هاجك الراكض وراء بقرته الحبلى... هاجك الماسك بمعصم أبيه الضرير.. هاجك الفاتح يده للسيد زينل يريد عشرة فلوس.. هاجك الحامل كيس التمر خلف

شاكر محميدة الذاهب الى دكان بقالته.. هاجك الجالس بجوعه الأبدي أمام مقهى عبو نجم.. هاجك النائم، من غير قلق، تحت نخلة في دالية الجامع الكبير.. هاجك الذي يحضر في العرس- أي عرس- ويتوارى رهبة حين يمر الشيخ عبد العليم بأبهته البيضاء.. هاجك الذي لا يأبه بالنساء، ويحب مشهد الأطفال يتقاذفون بأقدامهم كرة الخرق. ويكره الأغوات الأغنياء لأنهم يحدِّقون فيه باحتقار وخوف.

وسأل كمال أبي:

"ما معنى هاجك؟"

"ليس هذا اسمه، اسمه عبد الله".

"ولكن، ما معنى هاجك؟".

"العلم عند الله".

"لماذا يسمّونه بهذا الاسم؟".

"والله، لا أدري".

"مَن يدري؟".

"أظن.. لا أحد يدري".

وحزن كمال لمّا مات هاجك.. هاجك؛ هذا الكائن البدائي، الهائل الجثة، المسالم.. الذي لا يهيج إلاّ على المراهقين ليتّقي

هزءهم وأذاهم.. هذا البريء، المولود سهواً في هذا الزمان، والذي- ويا للمفارقة - صعقته الكهرباء بعد يوم ممطر عاصف.

خرج مبكراً من كوخه، وعثر بسلك مقطوع مميت، وتمدد ساعة في الطين قبل أن تأتي الشرطة، ويأتي موظفو الكهرباء وعمال البلدية.. ويأتي الجزارون والبقالون وأصحاب المقاهي والدكاكين، والمراهقون والأطفال، ويحتشد الموكب الحزين ليحمل جثمانه الثقيل إلى الجامع للصلاة عليه، ومن ثم إلى مثواه في مقبرة إسرافيل.

بعد سنتين أسرَّ لي كمال:

"أريد أن أكتب شيئاً عن هاجك.. ربما رواية".

"ماذا؟".

"نعم.. بالرغم من أنه كان كائناً استثنائياً في شكله وغرابة أطواره، أرى أن في حياته مغزى ما".

"كيف؟ هاجك كان مثل كل البلهاء في هذا العالم.. حياته خاوية خالية حيوانية.. عن أي مغزى تتحدث؟".

"لا.. هو لم يكن يشبههم في شيء سوى في أمر واحد.. الوحدة، وهاجك كان وحيداً أبداً".

صفنت قليلاً قبل أن أفاجئ كمالاً بسؤال صادم:

"كمال.. هل تشعر أنك وحيدٌ أبداً؟".

"ما الذي يجعلك تسألني هذا السؤال؟".

"أجبني".

"قل لي أنت".

"كمال؟!".

"أنتم أهلي.. وأنتَ أخي وابن عمي وصديقي".

ومنذ ذلك اليوم وقعت على تلك الزاوية الظليلة من روح كمال، وشهدتُ، للحظة، اضطرابها السرّي، وشجنها المعقّد، وخوفها من المجهول.

ما الذي كان كمال يبحث عنه وهو يهمّ بالكتابة عن هاجك؟ ماذا غير الوحدة؟ وهل كان يعرف عن هاجك ما لم نكن نعرفه نحن؟ أم تراه اقتنص معنى سرّياً من تلك الحياة الوحشية المغفّلة؟ أم أنه أسقط تصوّراته عن نفسه وعن العالم على حياة هاجك ليستخلص مغزى وهمياً لم يكن يوجد إلاّ في ذهنه، ساعياً إلى كتابة روايته من خلال رواية هاجك؟

وحتى هذه الصفحة، لا أعلم إنْ كان كمال ينأى عنّي أو يقترب منّي؟ لا أعلم إن كانت خطواتي في اتجاهه أو في اتجاه نفسي؟

وكمال الذي عرضتُ تواً شذرات من حياته هل يشبه في شيء كمال الذي عاش معنا، وقاتل الإيرانيين ست سنين. وقذف الأميركان بالقنابل اليدوية، وربما قتل منهم وجرح، ليسقط

برصاصاتهم بعد أن تحرّر أخيراً من كوابيسه القديمة؟. هناك إذ كان المطر يهطل فينفذ بدمه في مسامات الأرض وعروقها، وتغوص كفّه عميقاً مثل جذرٍ في الطين؟.

الصندوق..
مدار أول

- ١ -

نزعتُ الشريط الأحمر وأفردتُ الرسائل.. أحصيتها.. إنها ليست كثيرة.. اثنتا عشرة رسالة، أغلبها من أصدقاء أعرفهم.. ثلاث رسائل من نبيل موقّعة بتواريخ متباعدة.. واحدة تشير إلى أن كمالاً تسلّمها وهو طالب في الجامعة، واثنتان وصلتاه وهو جندي في الجبهة. رسالتان من علي تنطويان على قلق ولوعة كتبتا في سنوات الحرب.. أربع رسائل من كركوك، من صديق لهُ يُدعى جلال، وتلكم الرسائل كلّها كانت عاديّة تماماً، بصياغات مألوفة، وليس فيها ما يثير أو يضيف شيئاً، إلاّ أن رسائل ثلاثاً كانت تنبئ عن محطة مجهولة في حياة كمال.

في البدء جذبت أناقتها، وتعاريج خطوطها الناعمة انتباهي، وشرعت بقراءتها لأجدني إزاء أسئلة جديدة، ومدى آخر لم يكن في الحسبان.

الرسالة الأولى:

عزيزي كمال

قد تُفاجأ.. لا بأس.. أنا الأخرى فوجئت عندما ألفيتُ نفسي مرغمة على الكتابة.. هكذا.. كنتُ ضجرة وتذكّرتك.. بصراحة أقولها: إنك لم تعبر خط ذاكرتي إلا مثل طيف باهت، في أوقات متباعدة، طوال السنتين اللتين لم أرك خلالهما، ولكنك هذه المرّة سطوت على ناحية ما من تفكيري. وعرفتُ أن الشيء الوحيد

الجدير بي أن أعمله، وبشيء من الشغف والإثارة، هو أن أكتب إليك.

ماذا أكتب؟. وهل بيننا ما يستدعي الكتابة؟

كمال.. أكان أحدنا يحب الآخر؟. أكنت تحبني؟. هل أحببتني؟.

إن قلتَ؛ نعم، سأقول لك إنك واهم، ولا أريد أن أقول إنك كاذب.

وأنا.. هل أحببتك؟. لا.. هل أحبك الآن؟ لا.. ماذا إذاً؟.. لنبق أصدقاء والى الأبد.. لعلّك تتساءل؛ وهل كنّا أصدقاء أصلاً؟.. الأسئلة دائماً مخيفة وتشوّش العقل. وكم كانت الدنيا تصير أجمل لو لم تكن هناك أسئلة.

حسناً.. أنا أكتب إليك، ولا أدري إن كنتَ حيّاً ما تزال أم لا؟ غير أنك حيّ، في هذه اللحظة، في خاطري.. أنت تحارب الآن بلا شك.. الحرب تجربة صعبة، وأنا لا أريد التحدّث عنها.. في الأقل معك أنت.. أنت تعرف عنها أكثر مني لأنك تعيشها.

حسناً.. كنتُ ضجرة.. الضجر هو الشعور السلبي الوحيد الذي يهدِّدني هنا.. أمس، أنهكتُ جسدي في الرقص.. كنت أرقص مثل دمية (مكوّكة).. أنطّ وسط شباب بهيئات مضحكة. أقول مضحكة، وأنا التي لم تعد هيئتي تختلف عن هيئاتهم.. ربما هو الرقص الذي ذكّرني بك بهذا الإلحاح.. أعتقد أن هذا صحيح، فيوم رقصتُ أمامك كنتُ أرقص لغرض محدّد..

انطلاقاً من واعز في الداخل.. كانت رقصتي ساعتها ضرورة، وأنت استجبت.. أقول بلا مواربة كانت استجابتك في محلِّها، أي أن ذلك، هو بالتحديد، ما كنتُ أحتاجه.. الجرأة والقوّة، أما هنا، فالأمر على عكس ما تتوقّع.. أرقص.. جسدي يهتز.. كل خلية فيَّ تهتز، ولكن لا شيء في الأعماق يهتز.. لا أدري.. مجرد حركات بلهاء، وفي النهاية أسقط من الإعياء، لاهثة، دبقة، أكاد لا أشعر بشيء سوى بالفراغ.. كأن كل ما فعلت كان بلا جدوى.. بلا معنى.

وأصدقائي.. حسناً.. أهم أصدقائي حقاً؟.. مفهوم الصداقة هنا شيء مختلف.. إنهم سعداء.. يضحكون ويشربون.. يشربون كثيراً، ويرقصون.. لا يهمهم ما يعكِّر صفو الروح.. لا أحد هنا يشتكي. أو أنهم لا يشتكون لي أنا.. يجيئون ويرقصون لساعة.. لساعتين.. لثلاث ساعات، وأحياناً يتشاجرون، ثم يذهب كل منهم إلى حال سبيله.. إنهم يدعونني.. الشبّان منهم بخاصة، وأعتذر.. أتصدقني؟ ثم لماذا أبوح لك بهذا كله؟.

على أية حال، ابن خالي علاء مشغول.. وقال لي إنه لا يفكر بالزواج، أو أي شيء من هذا القبيل.. أي ارتباط من أي نوع.. يريد الحرّية كما يقول.. أية حرّية؟.. هنا، عليك أن تفكِّر بنفسك فقط، وإلاّ.. لا أعرف... الضياع، والمنقذ هو المال.. الفلوس يا كمال، وثانية أقول، وإلاّ...

لن أكتب لك عنواني لأني أخشى أن تكون الحرب قد ألقتك بعيداً.. دعني أعش على فكرة أنك ما تزال حيّاً.. لا أريد أن أسمع منك.. أريدك ، فقط، أن تسمعني.

تحياتي

مها / برلين الغربية

* * *

الرسالة الثانية:

عزيزي كمال

المطر هنا ما يزال يسقط منذ أيام.. لا شمس، كأنّ لا شمس أبداً.. فقط البرد.. البرد.. أما الدفء فكلمةٌ تغمرني بالحنين، والخوف أيضاً.. لماذا الخوف أيضاً؟ لا أدري!.

تذكّرتك، وفكّرت أن أعتذر.. ستقول ما هذه الصلافة؟ لَمْ تعتذر في رسالتها الأولى، وبعد سنتين فكّرتْ بالاعتذار.. أقول: ليس هو الاعتذار ما جعلني أكتب إليك.. لستُ متأكدة من خطأي.. هل أخطأت فعلاً؟ سؤال فات أوانه.. حسناً.. كنت ضجرة.. ضجرة حدّ اللعنة.. فراغ مرعب.. السأم.. كتبت ذات مرّة، على ورقة بيضاء كبيرة، كلمة (سأم) عشرات المرّات. وكلما كنت أنتهي، أجدني أعاود الكتابة ثانية حتى اختلطت الحروف، وتحوّلت الورقة إلى قطعة سريالية رديئة ومضطربة.. إنه عالم صاخب.. مبهرج وناتئ.. أحسّني هاربة دوماً كأن أحدهم في أعقابي، يطاردني حتى في الحلم... وتتكررُ تلك الرؤيا المفزعة؛ سيارة مسرعة تفاجئني في الشارع، وفي لحظة الاصطدام أستيقظ خائفة، مبللة بالعرق.. لا أحد هنا يا كمال.. لا أحد هنا.. لا أصدقاء، وهؤلاء الذين تراني معهم، ماذا يكونون؟. ومَن يكونون؟. حاولت يوماً أن أستدرج أحدهم في الكلام.. قلت له: أحس أنني غريبة ها هنا.. قهقه عالياً، وقال: كلّنا غرباء في هذا العالم.. ارقصي.. ارقصي... ارقصي.. وأي رقص؟...

ألوذ بالرقص، وإذا بي في صحراء باردة، وحدي، والمطر ما يزال ينقر زجاج النافذة.. يثقب القلب.. حسناً.. أحدهم صرخ وهو في قمة السُكرِ (إنه عالم مثقوب)، وشربـ ... نا نخب هذه الشطحة التي جعلتهم مجانين بحق حتى الصباح.

لعلك الوحيد الذي يمكن أن يفهمني.. أنت صديق بعيد.. صديق، لا أريد منه إلاّ أن يفهمني، ويتعاطف مع ما أقول.. يسمعني فقط من غير أن ينبس بحرف واحد، لأنني أتخيل عينيك وأنت تقرأ كلماتي، وفيهما نظرة إدانة، أو شفقة. وكلتا النظرتان لا أريدهما.. أظنك تعرف لماذا؟.

حسناً.. سؤال يمرُّ في ذهني، في هذه اللحظة.. هل تزوجت؟.. أيفكر المحارب بالزواج؟. شيء غامض هو الحرب.. لا أستطيع تصوّرها.. في السنة الأولى، منها، كانت الطائرات ترعبني... مرة رأيتُ واحدة سوداء مثل ديناصور طائر، وبقيت أحلم بها.. كانت تنقضّ عليّ.. حتى هنا، وأنا بعيدة، تأتيني وتنقضّ عليّ فأهرب، وأتمنى لو تتلقفني أنت بين ذراعيك وتحميني منها.. أجل يا كمال.. مثلما فعلت في تلك المرّة.. لا أظنك نسيت.. أنت، لا غيرك، منْ وددتُ، في الحلم، أنْ ينقذني، وفي الصباح كنتُ مندهشة.. كيف ولماذا؟ أنت الذي أخطأت بحقك، أو أن القدر جعلني كذلك.. أنت كمال.. الصديق القديم.. الصديق البعيد. وفي آخر حلم كنت أنت هناك.. أمامي.. ضممتني وقلت: لا تخافي، غير أنني كنتُ خائفة لحظة استعادتي لتفاصيل الحلم.. حاولت تفسير ذلك كله.. تصوّر.. إلاّ أنني أخفقت.

ما احتاجه هو الانشداد لشيء ما.. لهدف محدد.. ما أحتاجه هو الإحساس بالانتماء فعلياً إلى عالم يحتويني ويُشعرني بذاتي وبالبهجة.. وبالمتعة الحقيقية، لا الزائفة.. بالمتعة التي تخلّف رضاً وراحة، لا صدى وحشة وفراغ، وشعور مبهم بالإثم.

تحياتي

مها / برلين الغربية

* * *

الرسالة الثالثة:

عزيزي كمال

أما زلت حيّاً؟ أما زلت تقاتل؟... سمعت أخباراً عن الحرب، وتساءلت: كيف يمكن لإنسان أن يعيش لسنوات في القفر، وبين الحجارة... داخل الخنادق.. تحت الشمس المحرقة أو المطر، والموت يتربص به؟. تساءلتُ كيف، وتذكّرتك، وها أنا ذا أكتب إليك لأقول إنني أعيش الحرب أيضاً.. حربي الضروس مع نفسي، وضد كل شيء.. حسناً.. علاء تزوج.. قال إن تلك المرأة وقفت إلى جانبه في ساعات المحنة.. اللعنة.. لم تكن له، هنا، ساعات محنة قط.. علاء منسجم دائماً مع محيطه، ومكتفٍ بذاته. والذي أعرفه عنه، أنه إنسان لا يعنيه أي إنسان آخر إلا إذا كان يحقق له غرضاً ما، أو يُحتمل أن يحقق له غرضاً ما.

أحياناً أتساءل إنْ كنت أحب علاءً؟ الحب؟! لا أعتقد أنه الحب، ولكنه كان مشروع حلٍ ما، بطريقةٍ ما.... ستقول: هذا اصطلاح تجاري.. أجل، إنه شيء من هذا القبيل.

لماذا أصدع رأسك بأمور لا علاقة لك بها من قريب أو من بعيد.. لا أدري.. المهم أن علاءً أعلن فجأة أنه قرر الزواج من تلك المرأة الشقراء.. إنها ليست حلوة يا كمال.. ستقول: إنها الغيرة.. ولكنها ليست حلوة.

قلت له: وأنا؟. قال: أنتِ أنتِ.. وضحك.. يا للخدعة.. في تلك الليلة رقصت حدّ الإنهاك.. حد البكاء.. وشربت.. شربت..

شربت.. وبكيت، ثم غفوت، وصحوت وأنا بينـ... حسناً.. بينهم.. وبكيت بكيت، وقررت العودة إلى بغداد، ولكن خاطراً مريراً داهمني (إن الأوان قد فات).. إذاً ما الحل؟ وفي الكلية لستُ متفوِّقة... هل أخبرتك قبلاً عن الدراسة؟. حسناً.. لقد رسبت سنتين.. هل خبرتَ تلك المرارة التي تنزّها دملة متقيِّحة أسفل البلعوم.. إنها مرارة الفشل.. عندما كنّا صغاراً كنا نسمّي الطالب الذي يرسب في المدرسة ساقطاً.. السقوط.. التدحرج إلى الأسفل.

كمال.. أما زلت تقرأ هذه الترّهات أم أنك مزّقت الورقة؟. أرجوك اسمعني حتى النهاية.. رائع، اتفقنا.. أنت طيب القلب وتفهم، ولأنك تفهم، هجرتك لأنني لا أفهم.. وها أنا ذا أعيش حصار الحرية... أنْ تتاح لك فعل كل شيء، في الوقت الذي ليس بمقدورك أن تفعل أي شيء، مثل حيوان صحراوي يؤخذ من بيئته ويُرمى في القارة القطبية.. يقولون له: هذه القارة القطبية لك.. ملكك وحدك.. ولكن ماذا بإمكانه أن يفعل في القارة القطبية؟

إنها محض أكذوبة.. ولأنني بنيت أشيائي على مجموعة من الأكاذيب انهار فجأة كل شيء.

كمال.. أشعر بالبرد، وبالحاجة إلى إغفاءة عميقة، في مكان هادئ ودافئ.. إغفاءة، لا أستيقظ منها إلا على ضجّة العصافير.. بردانة أنا.. الصقيع في الروح، والأشجار موحشة، جرداء، يكتنفها الثلج، ووراء ذلك امتداد قاتم.. هه..

أتحسبني مصابة بلوثة في العقل.. أنا نفسي لا أدري.. كل شيء جائز.. فأنا أتخبط، ولا أعرف ماذا أفعل، أما أنت فواضحٌ يا كمال.. ما يُدهشني فيك هو وضوحك.. عندما كنتَ طالباً كنت واضحاً. وعندما حملت البندقية، حتى لو كان رغماً عنك، لتحارب، لا شك أنك كنت واضحاً.. بالمقابل، ما ينقصني أنا، هو هذا.. الوضوح.. الوضوح والتماسك والاتجاه.. فهل هناك من سبيل؟.

كدت أدوِّن عنواني لتكتب لي، عسى أن يكون لديك الجواب، أو الحل. إلاّ أنني خفت.. خفت ألاّ ترد عليّ.. أن تكون.. أنْ وأنْ.. دعني أعيش حلم أنك هناك وتسمعني، وتهتم بما أقول... تصغي إليّ بانتباه.. باحترام، وتهز رأسك متعاطفاً، وتقول.... حسناً.. لا تقل شيئاً.. لا تقل مسكينة.. فقط لا تقل مسكينة، وقل أيّ شيء آخر.

تحياتي

مها / برلين الغربية

* * *

مَن هي مها هذه؟. وماذا كان كمال يعني لها؟. وماذا كانت هي تعني لكمال؟. وهل من حقِّها أن تدخل في نسيج هذه الرواية - رواية كمال؟ وإن دخلتْ فهل ستكشف لنا، ما هو لافت، من تاريخه وشخصيته؟. وهل سنقع من خلالها على طبقة أخرى، عميقة وغزيرة بالدلالات، من تلك الأعماق الغائرة في أرض كمال الصلدة؟. هل ستأخذنا مها، هذه، إلى أفق صحيح، أم أنها ستضللنا وتشتتنا؟.

- ٢ -

"الصور.." قال عارف ذات مرة: "هي الذاكرة التي تحمل وزر الصدق إلى الأبد". وقال حين رأى الدهشة على وجهي: "وكل صورة نافذة، تمنحك طواعية سرّ فتحها، إن لم تضللك". وقال لمّا وجدني أضحك: "الصور هي الفضائح والشهود".

تمثّلتْ كلمات عارف جليّة في ذهني وأنا أنثر عدداً لم أكن أتوقعه من صور كمال، على سريره ـ الذي أبت أمي أن ترفعه بعد استشهاده، كما لو أنها تتوقع عودته في أي يوم ـ وعلى سريري، وأضع الألبوم ذا الغلاف الجلدي الأحمر على المنضدة الدائرية الزرقاء.. أضعها هناك بحثاً عن سرّ فتح النوافذ، وامتلاك طرق الكشف.

أقلّب الألبوم.. تطالعني ستّ صور باهتة.. صور قديمة كأنها من مخلّفات عصور بائدة خلت، أو من تجسّدات وقائع حلمية، ليس إلا.. ستّ صور.. أتأملها.. أحاول قراءتها.. فحصها.. اختراقها.. تشريحها.. أصبو إلى تحريكها.. استنطاقها.. ستّ صور يستحوذ عليها الأبيض والأسود ودرجاتهما.. يتوزع الأبيض والأسود على خطوط وأشكال وأعماق ليؤكد الحضور الكثيف لسارة ـ الطفلة ستّ مرات، ولكمال ـ الطفل ستّ مرات.

كمال يتسلق النخلة (التي سيخبئ في أعلاها مفتاح صندوقه بعد زمن طويل)، ويدير رأسه لسارة التي ترفع رأسها، تشيّعه، وهو ماضٍ صُعداً، صُعداً.. كمال بدشداشة بيضاء تغطي

كاحليه، وسارة بثوب مشجّر، حافته السفلى من الدانتيللا، تستقر فوق ركبتيها بقليل.

كمال يتدلى ممسكاً غصن شجرة توت، وسارة في الجدول تبتسم. كمال على وجهه إمارة إصرار، وسارة التي يغمر الماء ساقيها تنظر إليه بدهشة بريئة باسمة.

كمال وسارة يقفان أمام خلفية من الأراجيح ودواليب الهواء والعربات المزدانة بالشرائط الملوّنة، وبشر من أعمار مختلفة... إنه يوم عيد، وكمال بالبنطال الضيّق والسترة الواسعة المفتوحة. أما سارة فثوبها يتسع ابتداءً من الخصر.. في وقفة كمال تكلّف مضحك.. يداه مقوستان حول جذعه ورأسه مندفع كما لو أنه إزاء تحدٍ صبياني، وسارة طبيعية جداً، وصغيرة جداً، تُمسك بيدها شيئاً ما.. لعلّه دمية.. أهي الدمية نفسها التي اشتراها لها كمال بعد خيبته في صنع دمى الثلج والطين؟

كمال فاغرٌ فمه يضحك، وسارة تمتطي ظهره ويداها النحيلتان ملتفتان حول رقبته، ووجهها مخفي وراء رأسه، ولا يبين من رأسها إلاّ خصلة من شعرها عند أذنه.

سارة جالسة على كرسيٍّ خشبي، ورجلاها متلاصقتان، وبين أسفل قدميها وأرضية الباحة أكثر من شبر واحد، وكمال واقف إلى جانبها، متشبِّثٌ بمسند الكرسي كأنه يخشى عليها من السقوط. ووراءهما مباشرة يلوح جزء من جذع النخلة.. جزء يمنح إحساساً بالثبات والصلابة.. جبين سارة يضيء مواضع الصورة كلها.

في الصورة السادسة تضع سارة إصبعها في فمها وتنظر بجرأة إلى الكاميرا، وكمال يرفع عصاه.. إنه أشبه ما يكون بفارس قبل الأوان يتصدى لعدو غير مرئي، يراه هو وحده.

للصورة شفرتها الخاصة.. لغتها السريّة المرشّحة لقراءةٍ من نمط فريد.. إنها عوالم قابلة لانفتاح لا يُحد. ولكن كيف لي أن أذوّب طبقة الجليد التي غطّت سطح الذاكرة بالتضافر مع العامل (س)، ذلك العامل المتغير الذي يتدخل كلما أراد المرء أن يفكر بشيء ويفهم.

أقلب الصفحة الأولى من الألبوم.. تتوامض حالاً اثنتا عشرة صورة تبثُّ إشاراتها الملوّنة من تضاعيف سنوات قريبة.. مستطيلات تكتظّ بالوجوه، وفيها كلها - بعد أن اختارها كمال، كما اعتقد، بقصد واعٍ - تتراءى سارة بين الحضور الأليف لأفراد العائلة.. هذه الصور، جميعها، التقطت في يوم واحد، في البيت.. مرة داخل غرفة الاستقبال، وأخرى في الباحة. وسارة بأنفها المترفع وفمها المرتخي، وملامحها الراضية تترك انطباعاً عن جمال طفولي آلَ إلى النضوج.. بلوزتها صفراء فاقعة، وتنورتها سوداء.

في الصورة الأولى تراها جالسة مع أبي، وفي الثانية مع أمي، وفي الثالثة بينهما على الأريكة ذاتها، وهي واحدة من طقم الأرائك الخضر التي اشتريناها، وجلبناها يومها إلى البيت.

قال كمال:

"في مناسبة بهيجة كهذه يجب أن نحتفل".

ردّ عارف بتهكم:

"وهل سنقيم كرنفالاً راقصاً؟".

قال:

"لا، عندي فلم جديد.. ست وثلاثون صورة".

في بقية الصور كنّا نظهر جميعاً باستثناءِ واحد منا؛ (أنا، أو كمال، أو عارف، أو حسن) كان يختفي ليلتقط الصورة.. حسن طويل أبداً، وواقف أبداً بالقمصلة البيجية.. عارف لحيته نامية، وشعره قصير، يرتدي بلوزة مارونية... أبي يلفُّ العمامة على رأسه كالعادة، وعلى كتفيه معطفه الصوفي الأسود.. أمي، حول رأسها فوطتها السوداء، وتلبس سترة قهوائية.. وكمال منشرح.. حاجباه الكثّان مرفوعان على الدوام.. بلوزته رصاصية متهدلة، وبنطاله أزرق. أما أنا..؟ من الصعب أن يرى الإنسان نفسه بالوضوح الذي يراه به الآخرون.. أما أنا.. فلا أدري.. أبدو حزيناً.. أكنتُ حزيناً حقاً ساعتها؟.. بدلتي الرصاصية ما زلت أرتديها حتى الآن.. الحقيقة أنني لا أرتديها إلاّ في المناسبات، وقميصي الأبيض ما يزال في دولابي.. وأنا حزين.

أقلب صفحة أخرى.. تطلّ سارة أيضاً.. وحدها أحياناً، وأحياناً مع آخرين.. طفلة تضع يدها على خصرها باعتداد.. وطالبة تحمل كتاباً، تثبّته على صدرها.. وشابة بالبلوزة الصفراء الفاقعة، والتنورة السوداء.

صور.. صور.. صور.. أغلق الألبوم.. أعود وأجمع الصور التي نثرتها على السريرين.. أنا وكمال.. عارف وكمال.. نبيل وكمال.. علي وكمال.. شاب أسمر لا أعرفه وكمال.. على ظهر الصورة هذه كتب كمال؛ كمال وعبد الله، المستنصرية، ١٩٨١. ولا توجد صورة واحدة تجمع سارة بكمال معاً، وحدهما، في سنّ النضوج.

شباب وكمال.. جنود وكمال.. طلبة مدرسة وكمال.. طلبة جامعة وكمال.. صورة تعود إلى مرحلة تستفزّ عصب الحنان.. الأستاذ جاسم بوقفته المهيمنة، وطلبة صغار يتوسطهم كمال، حاملاً لوحة كتب عليها (الصف الثالث)... أبحث عن نفسي في زحام الوجوه.. لا شك أنني كنتُ معهم.. أتذكر بعضهم، أما الآخرون فضاعت ملامحهم في فجوات السنين.. علي وجميل أُستشهدا.. قاسم تسرّح من الجيش بسبب بتر ساقه.. شكري ضابط.. محمد هادي مدرس.. عماد سعد الله معلم رياضة.. عامر داود أستاذ جامعي.. عمر صالح موظف في المالية... نبيل عبد القادر طالب دكتوراه.. عبد الصمد محمد صالح طبيب أسنان في بولندا.. صلاح بيرام طبيب بيطري.. عثمان وستار وناظم وناهض وعبد الرحمن يعملون الآن في السوق... يبيعون ويشترون.

أتحرى عن وجهي.. عن عينيّ.. عن قسماتي.. أهذا أنا؟... يا لها من مسافة.. يا لها من مسافة مهولة.

* * *

من الأسفل، من المستتر، تنبجس السويقات الخضر، وتنفتح في مهرجان متآزر مع زهور بيض وصفر وحُمر وبنفسجية إلى أفق من تلال كأنها من ضباب. ويندفع نحو المقدمة رجل بلباس عسكري.. رشيق.. رجلاه طويلتان، قويتان، وبين قدمه اليمنى وقدمه اليسرى خطوة في اتجاهي، كما لو أنه يصبو إلى الانعتاق من السجن المستطيل.. مَيلان صدره إشارة الى إلحاح داخلي - ما فوق طبيعي - والرشاشة معلّقة على كتفه.. يخفي رأسه في خوذة، والخوذة محاطة بالهالة الزرقاء للسماء القصيّة.

أهو كمال؟.. أرصد اختلاجة الوجه بالرغم من ظلال الخوذة، النازلة حتى خط الذقن.. أتأمل الأنف والعينين.. ثمة انشداد متوتر في العضلات يبدأ من دائرة الفم المغلقة، ويتوضّح في تكوّر الفخذ الأيمن.

هكذا يطلع كمال من النهر عارياً إلاّ من سرواله الداخلي، ويركض فوق الحصى حافياً، صارخاً: "محمد". لتردد الجنبات (محمـ مـ مـ مـ د).. ويقتربُ مني، وكنتُ قد وصلت البلدة قبل ساعة.. خلعت ملابس الميدان، واستحممت، وانطلقت الى الشط حين قال عارف إن محمداً مجاز أيضاً، وهو الآن يسبح، ويصطاد السمك مع أصدقائه.

"مهلاً، ستبللني".

"سأقذفك إلى الماء".

يعانقني.. يقبلني.. تتبلل ملابسي.

"انزعها.. متى جئت؟".

"قبل ساعة.. لماذا لم تأتِ وتتغدى في البيت؟"

"صدنا سمكة كبيرة.. بزّاً رائعاً وسقفناه.. كان مكانك خالياً".

"ألف عافية.. صرتَ أسودَ تماماً في الشمس".

"تركت البياض لك أيها الأبيض".

ويضربني على كتفي بقوة موجعة.. بعد ساعتين يقول لي:

"سألبس، وأجيء معك، أم تريد أن تسبح مرة أخرى".

"لا، كفى، تعال معي.. عمّك غاضب منك".

"لماذا؟".

"يقول إنك لا تأكل في البيت".

"كما ترى.. حسب الظروف".

"أهناك شيء؟".

"طبعاً، لا".

أهو كمال؟.

شفتا كمال مزمومتان.. يجلس على كرسي وأمامه منضدة خشبية، يضع يده عليها، ويسند ذقنه على راحته.. وجهه منحرف إلى اليسار، ونظره مرتفع، كأنه يراقب من خلال نافذة

مفتوحة طائراً حلّق لتوّه، أو لوحةً معلّقة على حائط.. إنه يجلس داخل غرفة في بيت ما... هو ليس بيتنا قطعاً، أو أي بيت آخر أعرفه... في جلوسه بُعدٌ زائف لأنه في مواجهة كاميرا، غير أن في نظرته مسحة من اللاأبالية.. الفضاء يفتقر إلى الضوء الكافي فيتيح فرصة نادرة لجلاء غلالة حزينة توشّح الصورة.

"أحبُّ المطر". قال ذات مرة: "لأنه حزين، وأحب السياب، لانه قال ما أقوله الآن بشكل مؤثر".. تذكرتُ هذا الكلام وأنا أحاول حلّ لغز المطر الخفي المنهمر عليه، وهو جالس مستسلم له برضا نبيل.. أين تراه يكون؟.. في أية سنة وأيّ موسم؟. وقميصه؟.. متى كان يملك مثل هذا القميص الأبيض الذي يقطعه خطان عريضان أخضران عند الصدر.. استعدتُ في ذاكرتي ألوان قمصانه وأشكالها، غير أنني لم أفلح في إرجاع هذا القميص إلى نقطة زمنية محددة.

أزحتُ هذه الصورة جانباً.. جئتُ إلى صوره وهو طالب في الجامعة، يرتدي زي الطلبة الموحّد، أو ما يخالفه، وبخاصة في الاحتفالات أو السفرات.. صور كثيرة.. عشرات الصور تهيئ لتكوين فكرة عن جوانب من حياته، ضمن محطة، ارتادها أربع سنين؛ محطة الجامعة.. أرصد هذه الصور التي سبقت لي رؤيتها بعين ثالثة علّني أغور إلى مستوياتها المتوارية خلف الخطوط والألوان.. أشاهدها كلها، ثم أعيد مشاهدتها.. ألاحظ ما لم ألاحظه قبلاً.. أنصب أشراكاً لأشياء أحدس وجودها، ولا أعرفها.. بغتةً تقع فتاة من بين الفتيات كلهنّ في أشراكي.

أيتها الشقية الجميلة؟... ترى مَن يلاحق الآخر؟.. إنهما قريبان دائماً.. متلاصقان أحياناً..

بعض الصور تفضح وئاماً ملتهباً، أو رغبات تكبتها آلاف العيون. وبعضها الآخر يؤشر جفوة مؤقتة ربما.. أو ينذر بالفراق.

مَن هي؟.. مَن تراها تكون؟.. وكمال لم يكلِّمني قط عن فتاة بعينها، تعرّف عليها في الجامعة وتجاوزت صداقتهما الحدود العادية.

ها هي حاضرة بعينيها الواسعتين، وشعرها الكستنائي المُرسل، وصدرها الصارخ.. شابة بأنوثة مؤكدة.. ملابسها تشي بأنها سليلة بيت مترف. تفرض نفسها على الصور كلها.. لعل الدلال أفسدها إلى حد بعيد.. من تكون؟.. أهي مها صاحبة الرسائل الثلاث الساخنة؟.

لم أجد أية صورة لها وحدها، غير أن هناك أكثر من عشر صور تجمعهما ،هي وكمال معا، وحدهما، وأمام خلفيات مختارة بدقّة وذوق.. صور تعود لازمان وأماكن ومناسبات مختلفة؛ (يسيران على مهل في أحد ممرات الجامعة.. يجلسان إلى منضدة في النادي.. يجلسان على الأرض المعشبة تحت شجرة.. يستندان إلى صخرة قرب نهر.. يقفان أمام صفوف لا نهائية من الأشجار.. يشربان العصير ووراءهما سكة عربة الموت في مدينة الألعاب.. يقتعدان دكة في متنزه؛ الزوراء على

الأرجح، ويدها تلامس يده في لحظة اصطياد نشوانة.. يمسكان عارضة سياج إحدى الحدائق، الخ..).

إنهما معا.. يضحكان برقّة حذرة، وبينهما، كما أرى، ينتصب جدار غير منظور. جدار من الشك. من عدم اليقين.. هي تبدِّل ملابسها عشر مرات في عشر صور وهو لا يغيّر سوى قميصه الأزرق بآخر رصاصي مرة واحدة، ويضيف السترة الزرقاء في صورتين. أما البنطال فهو هو. أو ربما هناك بنطال آخر باللون الرصاصي .. إنها تنظر بانشراح مشوب بالقلق، أما هو فمتردد.. أفي الأمر ورطة؟ أو فجوة يعسر ردمها؟.

أضع الصور أمامي، في متوالية مفترضة، على أساس الأسبقية في الزمان، أو في البعد النفسي.. أحفر من أجل العثور على عروق جوفية للتفاهم والتواصل.. ثمة انقطاع دوما. وجفاف في منطقة الجذور، وإصرار، بالمقابل، في سبيل البقاء معا، أملاً في إيجاد منفذ ما.

في تأملي للصور هذه، ومحاولتي لكشف خباياها، لا أدري إلى أي مدى أعانتني قراءتي للرسائل، على افتراض أن الفتاة في هذه الصور هي مها.. الفتاة حقيقة موجودة، وهو معها، وما بينهما - كما تقول الصور - شي أكبر من مجرد زمالة في الجامعة..

ولكن ماذا كانت تعني له؟ وهل باح بسرِّه لأحد؟ ومن يكون؟ واستبعدت أن يكون هذا الـ (أحد) أي من أخوتي (عارف أو

حسن أو سارة) وكان الاحتمال المنطقي أن يكون قد اعترف لنبيل، أقرب أصدقائه إليه بتفاصيل الحكاية..

جمعت الصور كلها التي تظهر فيها الفتاة، وقرّرت مواجهة نبيل بها. وسألت نفسي ثانية إن كانت هي مها التي كتبت رسائلها إليه من برلين الغربية. وأيضاً في ما إذا كان لها وجود معلن أو موارب في أوراقه الأخرى التي لم أقرأها بعد.

- ٣ -

لكأنني أسمعه.. لكأنه يتحدث إليّ، أو إلى لا أحد.. إنه هو.. هو.. كلماته، هو، كما لو أنها آتية من لا مكان عبر مدارات غريبة شاسعة. والحشرجة التي تسمعهُ تشبه اضطراب نهر سريع عند منعطف مباغت.. حشرجة تتوقع أن نهايتها المنطقية لن تكون إلا نشيجاً معذّباً.. صوتٌ متكسّر كنقر كرات الحالوب على زجاج رقيق. وكلمات هي محض أصداء تتجاوب مِن.. وفي كيان لم يكن مروره في هذا العالم عابراً.

تلفحك من بين هذه الأوراق جمل مطلسمة، مقنّعة، تسعى إلى الإخفاء والمناورة، وتسعى أحيانا إلى بعض الوضوح. فهو يعطيك خريطة من الكلمات – بينها كلمات، أو جمل بكاملها مشطوبة – ومفاتيح لفك ألغازها، ولكنها مفاتيح عصيّة أيضاً.

أدركت مغزى كثير مما أراد أن يقوله.. هكذا أعتقد في الأقل.. وفاتني مغزى كثير أُخر. وها أنني أعرض ما حوت هذه الأوراق من غير حذف أو إضافة.

ملاحظة: هذه الأوراق وجدتها بين دفّتي كتاب (ألف ليلة وليلة) بمجلده الثاني. وكانت مطوية، ومرقمة من (١) إلى (٨)، ويربطها دبوس صغير.

فلسفة الانتظار..

انتظار ماذا وكيف؟ ولماذا هذا الحكم الجائر بالانتظار الأبدي؟ والمهم هو أن تنتظر وتسأل نفسك قبل أن تسأل

الآخرين، وما الذي تنتظر؟. النار في الجذور.. النار أمامك، والزنبقة من بعض تجسّدات النار.. الزنبقة الغضّة في الجهة الأخرى للحلم، والماء يجري غاضباً، مزبداً، ومحايداً جميلاً، ولكن محايداً.. قال لي الشهوة من نَفَس الشيطان فروِّضها.. والشهوة دامية.. حريقٌ آخر على نقطة ما في طريق الحرائق.. تطوِّقني وكأنها تقول من خلل تلك الذراعين البضتين تلاش أيها الأحمق، تلاشَ فيَّ.. قال لي؛ حذارِ، هناك النار الكبرى.. النار دائماً ونحن ننتظر.. قل لي من لا ينتظر. وفي النهاية ننتظر.. ننتظر الحقيقة الوحيدة غير القابلة للدحض، وغير القابلة للفهم.. ثلاثون سنة عاصفة، وعمي يشدّ جلدة الدف بحرارة النار، والأطفال يتحلقون حولها كالفراشات.. لماذا تحب الفراشات النار؟ أم أنها مرغمة؟ أم تراها تعود إلى الأصل؟. والزنبقة في الضفة الأخرى.. أقول إنها هو، كما أن مدام بوفاري هي فلوبير.. والزنبقة.. من الزنبقة؟.. أتكون أنا؟ أنا..؟ سؤال شائك، واخز، ومدوِّخ، واقترحَ أن يأخذني إلى هناك.. إلى طقس آخر وعالم آخر يسيّر شؤونه بطريقة فريدة سرٌّ ما. وعند ذاك الملتقى كانت النار كرّة أخرى.. اطفئ نار غيظك في الدرب المظلم الوعر. وتشدّك إليها كأنك المنقذ المنبعث من رماد الخطيئة نقياً بأفق انتظار مديد. .هل أنت هارب من الزنبقة؟. شوكتها قاسية، غير أنها تشيع نغمة راحة.. ثم مرارة.. مرارة قديمة، والصخرة ثقيلة ساخنة بين الكتفين.. من يراها؟ والصعود الجليل.. قال لي: الشهوة تعيدك إلى بطن الوادي.. كان الرمل حارقاً بشفرات حادة تزعج الروح.. تخدش.. ماذا فوق الجبل؟ والرمال تضيّع الصحراء، والصحراء رفيقتها الوحيدة الشمس، والشمس حانقة،

والريح تهب تهب، وركضنا ركضنا ركضنا.. في الأنحاء رائحة دم ودخان.. دخان كثير كثيف.. دخان بعيد بين الأضلع والعمود الفقري وأعلى الجمجمة، والعطش كافر والأصوات.. أصوات ملعلعة.. أصوات خافتة، وأشياء تتطاير.. قال عارف كلّنا ننتظر.. دوماً ننتظر.. حيثما نقف ننتظر وحيثما نتجه.. والانتظار مقولة الزمان و(هاجك) كان كائنا مكانياً، لا زمانياً، يعرف خريطة مدينته، وتعاريجها ولكن بالانعتاق من عبء الساعات، ولهذا فهو لم يكن ينتظر.. ما هي نقطة اللاانتظار؟. الطمأنينة في أقصى تدفقها.. لحظة اللاشيء أو لحظة الكمال.. الموت.. وبين كفيّ أقبض على جسدها الساخن وأركض أركض أركض والرمل يلعب.. من ينسى دوامة الرمل؟ هم أيضا يركضون.. قال سنرتاح قليلاً.. شربت ماءً والزنبقة تقطر ماءً. والنهر صغيرٌ صافٍ، وبعضهم قُتلوا.. وهاجك يسرع بأبيه إلى السوق.. يخبّان.. هو المقتول القوي بصدره العاري المشعر وأبوه في عمائه السبعيني .لم أر هاجكا قط يمشي على رسله. والزنبقة تقطر ماء وتضحك.. بارك الله فيكم، جلست ألهث، والرمل دوامة، والزنبقة تكركر، وقطرات الماء لآلئ تزيدها نضارة.. سنلاحقهم وقفزنا ثانية. قال هناك انتهوا في الصحراء. وانتهوا والثلج كان يسقط.. الرمل مطر، والنار شبّت ومن ثم كأنها لم تكن، غابوا، وجئنا ببعضهم، والزنبقة تضحك تضحك تضحك وتنزل إلى الماء حتى بطنها ثم تنحني وتخفي إشراقتها في الماء الراكض. والزنبقة نزفت وبكت من بين أصابعها سال الياقوت بهياً. قال لم أقصد والدم سال، والرمل عاد إلى رشده.. قال، اقتصد، المعركة حامية.. قلت متى سينتهي هذا كله؟. وفي

الليل نمنا هادئين . وشربت ماءً ترقرق من بين أصابع الزنبقة. وكم أثملتني فيروز.. مالت مع الصوت الشجي ثم قالت أحبها.. قلت أحبها أنا الآخر وانساب صوتها سبعة أيام وثماني ليالٍ مثل الماء.. خرير الماء بين الحصى الناعمة، اللامعة.. وهبطنا من العجلات بسرعة بسرعة بسرعة. وهاج هاجك وانقض على عصبة المراهقين.. فروا مذعورين وتعالت صرخات، ولو أمسك بواحدٍ منهم لفتك به.. ما الذي يمكن أن يوقفه أو يردعه أو يثنيه.. حرٌّ مثل ضواري الصحراء ومثل الكراكي، واندفعنا والنار في الجذور، في الرؤيا، بين الأضلع والعمود الفقري وسقف الجمجمة، في الساقين، أركضُ أركضُ، والزنبقة طلعت من خاصرة الماء بليلةً وسقطت اللآلئ على طول الطريق إلى البيت، وملنا ناحية الجنوب في مرتقى الحرائق وأمي كانت هناك مع زينب، والأرض تباركتِ أيتها المقدّسة والغبار صدئ، أحمر في أفق الصيف.. الغبار على الوجوه، والطحين يقول عمّي إنه رائحة الخير. والزنبقة بأنملتها الصغيرة تمسح وجهه. رائحة القمح المطحون، والمدى يدور أو نحن الذين ندور، وحسن يصعد لولبيا إلى الخستاوي فتضع إبهامها في فمها.. عسل الخستاوي وتمر الهند.. رحيق الزنبقة وتكركر والماء يقطر.. آسفة.. لا، لا بسيطة.. أتلفت أوراقك.. إنها لا شيء، لا شيء.. الجو حار وكان لابد من أن أغسل البيت، حتى الجدران، لماذا أبقيت النافذة مفتوحة؟ الجو حار والضحكة حارة طازجة، وسال الحبر أزرق.. بحر أزرق وسماء زرقاء والزنبقة حائرة وشذاها يوقظ فجر الروح.. واستدرنا.. أنهينا الحصار. ولمحت محمداً في الخندق في الغبار وقلت خلّصناكم من الورطة.. أكان

محمدٌ هناك؟ أينعت الزنبقة وامتد اللقاء دقيقتين، (دير بالك على نفسك) وأنت أيضاً وأنا أيضاً. أكنت أحلم في غفوة بين صحوين ملتهبين؟ وقال تزوج قلت الشبكة كيف السبيل للخروج منها؟ قال الشبكة خيوطها من وهمك، وتسلقنا الجبل، والذرى تطعن الغيوم وبين الصخور كانوا نائمين فأحطنا بهم وضحكنا.. استيقظوا وجاءوا معنا.. من يعرف لغتهم ..لماذا أنتم نائمون؟ تعبنا.. ونحن كنا متعبين. ضحكنا وقلنا من لا يتعب في الحرب.. دورية معادية بين الصخور، والزنبقة صنعت سماء رائقة.. امرأة في ممر شجري والشمس تحمِّمها بالضوء عبر شجرتين عبر الأوراق عبر الثمر.. الثمر الطيب وبين الحلفاء والخُبّاز وأعشاب الحافات المائية تختبئ الكراكي.. تختبئ طيور الدرّاج والقطا.. أهي قادمة أم تراها تبتعد ؟ لو أنها قادمة.. ما برجك؟ القوس.. أشدُّ القوس والغيوم خفيضة ثم ينهمر الثلج.. ندف الثلج شعر البنات يذوب في الحلق وقالت الزنبقة أمعكَ عشرة فلوس؟ فاشتريت لها بالقطعة الوحيدة التي أملك شعر البنات.. خذ قليلا ..لا أريد.. لا أشتهي، وكنت أشتهي فيما تتلامع البؤبؤان العسليان.. يقول نبيل عيناها ليستا عسليتين، ولكنّهما عسليتان وشعر البنات يذوب في الحلق وهو يصيح (شعر البنات وين أولّي وبين أبات) وأنا أشدّ القوس والثلج ينهمر والقوس برجي والأرض شرعت بالارتفاع وأطلقوا النار.. اختبئوا.. فاختبأنا.. أطلقوا النار.. أطلقنا، والثلج ينهمر كأنك في حلم، وانقض الثعلب الذي اكتسى برماد العتمة، وتضرّج الكركي بدم الغسق وهو يزعق فأطلقت ففزع الثعلب فحرر الطائر.. كان نزيفه يخضِّب أصابع الغروب.. أسرعوا لئلا تقعوا في أيديهم، وعدنا

جميعاً وسالم ينزف من صدره، وأنا من أنفي وشفتي متورمة، وسألني عمّي، تعاركت مع من؟ قلت هم بعض السكارى الأوغاد اعترضوا طريقي وما صدّق عمّي وكنت أنزف وبين أناملها تلظى الياقوت وكانت تصرخ.. ما برجكِ؟ الجوزاء برجي.. ياه، كم هو بعيد بعيد.. سأصعد إليه والذرى طعنت الغيوم، وتفتحت سماء زرقتها منشرحة وأصابعها ملوّنة.. عندي كتاب (آفاق الفن) هل تقرئين.. اقرأ اقرأ.. آسفة، من دون أن أستأذنك وضعت خطوطاً تحت بعض الأسطر.. لا عليك، هو كتابكِ؛ (والفنانون جميعاً، بمن فيهم النحّاتون، أبناء النور، فهم يكدحون في النور، بالنور، خلال النور - النور دوماً. وهم يشكّلون أعمالهم لتعيد النور من جديد، فنور فلاسكويذ أشبه بالنحل الذهبي الشفّاف وهو يكتظّ في الظلّ المعسول، في حين أن نور روجير فان در وايدن أشبه بالماء الدافق على المرمر. أما نور بيكاسو فيقبض على اللباب المظلم ويضمّخه ويشكّله). قرأت هذا المقطع عشرات المرات حتى حفظته عن ظهر روح.. أيتها الزنبقة، ابنة النور تباركتِ. وبين النور والحريق آصرة.. بين النور والحريق تضاد. ودرب الحرائق قدر والمطر يتساقط.. تتفتح سماء بهيّة على الورق.. السلك المتوتر بين المنفى والحرية. أما الكراكي فعصيّة على النفي.. إنها تهاجر أبداً وتعود مثقلة بعبء الإحساس بالحرية، شرط الحياة النادر. وبفقدان هذا الشرط يكون المنفى. وحبها كان المنفى تفتّحَ تحت سماء بلا حرية فصارت المنفى.. آسفة ، الجو حار، والضحكة حارة طازجة. ما برجك؟ القوس. وفي مسار مقوس كانت الأرجوحة صاعدة نازلة والزنبقة تكركر وثوبها ينتفخ وسروالها

أبيض أبيض أبيض.. أوقف الأرجوحة.. انزلي انزلي، عيب.. بكت.. ترقرق دمع ونزل خيط مخاط بلل الشفتين.. عيب عيب، وكانت تكركر والأرجوحة صاعدة نازلة وسروالها أبيض أبيض، وأنا أغار، وحتى المجنون الذي لا يدخل في حسابه تقلبات الطبيعة، ولا يفهم في استراتيجيات النفاق يغار على أخته، ويفكر حتما بأبيه وحاجاته كما هاجك. أمجنون هو أم أنا؟. وقالت أحبك إلى حد سوف أسبب لك مشكلة.. هذه قالت، وقالت تلك، أنا عالم وأنت عالم ثانٍ.. هراء سأستدرجك إلى عالمي، وعالمي كيف أهجره.. هل تريدني؟ لا يهم.. المهم أنا التي أريدك وأنا إن أردت شيئا حصلت عليه.. سأحصل عليه حتماً. وفي نهار ما قالت أنت لا تريدني، قررتْ، هكذا، أن تحرِّرني.. ألا تريد التحرّر منّي؟. كانت نزوة، وأنت ممتاز ولكن.. وأنا الآن حرٌّ وهاجك حرٌّ.. هو الغريزة في حركتها الفاضحة.. الشهوة للبقاء والاستمرار من دون أي إحساس بالزمن.. من دون تقدير لاحتمالات الموت والفناء والخراب. وشعرت بغصّة وهم يكنسون البيت ويزيلون بقايا الأوثان الصغيرة.. هذا عصر البلاستك، والزنبقة صارت من بلاستك.. لا تظلمني.. لا تتشاجر.. لا تشرب.. لا تبكِ.. لا، جندل مهيب، والزمن ينزلق باتجاه شيخوخة قاسية.. نلتقط صورة بدرهم واحد.. قفا، ابتسما، تقاربا، والدمية في يدها من بلاستك.. قالت تعال نجلس على الدكّة وخلفنا غيمة تشبه ذئباً. اختفت الغيمة وضُبطنا متلبسين، وكانت يدي تدب، وتفهّم المفوض الأمر وقال اخرجا من هنا، والمصور ألقى الصور على المنضدة العريضة في النادي؟ مم تخاف.. ممن؟ من نفسي.. لماذا هذا الغرام بالصور؟ لأنها هي

التي ستبقى. وقلت المغزى في الرائحة، قالت، بل في الألوان.. الألوان، وجلست بين أبيها وأمها.. من أجلكِ سأثبت استمرارية التاريخ في جزء من اللحظة.. سأجمِّد شكل الحركة اللولبية.. جنون الدوّامة وأدور، يتولاني الدوار، وفيروز تتخطى الزمان.. صداحها عذاب.. أفضل ما تفعله هو أنك تُسمعنا صوت فيروز في كل صباح.. في كل صباح فيروز، ورائحة الزنابق، والدنيا ربيع والأرض من سندس.. ستعيدون تنظيمكم هنا.. هذه هي الزنابق قلت لعلي خلف.. لا، هذه شقائق النعمان.. أنت لا تفهم في النباتات.. قالت هذا ورد الجوري .. هذه جمرة.. هذه كهرباء.. كانت تلبط.. بارعة مثل سمكة حرّة فتيّة.. ألا تريد التحرر منّي؟.. ما قصدكِ؟.. حررتكَ، يعني كلٌ يذهب في طريقه.. أنتِ ماكرة.. أنت بليد.. ياه، مجنون.. شعرت بغصّة في الحلقوم وجاءت اللكمة تحت العين اليمنى.. حرائق حرائق حرائق.. اختبئوا في المواضع الشقية، كدس عتاد يتفجر.. من الخطأ تكديس العتاد في العراء، والحرائق هناك.. أمامنا في الضفة الثانية، وتحت جلدي، والطائرات تقصف.. ستموت.. لا أقدر أن أسيطر على نفسي.. ما الحكاية؟ أنتِ تخنقينني.. أرجوك ابقَ.. لا تقولي إنكِ تحبينني.. أنا أعبدكَ.. أكسرُ زجاج البرهة لألتقي بالذي من المحال اللقاء به، نفسي. وحسن تألق في كرنفال التكسير، وكان يجب ألا يهرب من البيت وامرأة عمّي كادت تبكي وعمّي قال لن يدخل هذا البيت ثانية. قلت هي الحرب وضحكت زنبقتي، لكن الريح السموم هبّت، نفضت شجرة التوت رداءها، وعارف أوشك أن يقع وتُدق عنقه، غير أن توسّلاتها أرجعته.. قال أتخافين عليّ. حدّقت فيه يا لك من

أرعن لعين.. أترى تخاف عليّ؟ لِمَ لا؟ والريح السموم كانت تهب، والرمل الفائر يتلاطم، وكنتَ باسلاً يا حسن، وعمّي بعد ثلاثة أيام امتلأ وجهه بماء السماحة. قال ليعد فداءٌ له الصحون.. فداءٌ له كل ما هو قابل للكسر. أنا قلت هذا منذ اليوم الأول.. صحيح أن الغضب أعمى، وكان الظلام عظيماً.. ازحفوا، واهتزّ تحتي السرير.. ما لكَ عين الحسود فيه عود. وتقلّصت معدتي، قذفتْ بغيظٍ أثقالها ونزل الدمع. بكت خالتي، وجاء عمّي بسيارة الجيران.. كانت سيارتهم قديمة.. لا أريد، مرّة أخرى لا أريد.. لستَ حرّاً في أن تريد أو لا تريد.. ازحفوا سننقضّ عليهم.. في ليلة طعينة أخرجونا.. سنعيدها.. قمنا باسم الله والأرجوحة صاعدة نازلة والثوب الملائكي ينفخه الهواء.. كل شيء أبيض في أفق بريء.. صحتُ انزلي فنزلت الدموع وانفلت خيط مخاط غطى الشفتين الرقيقتين، وأصابعها ملوّنة، وأصابعي لا أكاد أراها، وانداحت في الجوار رائحة البارود.. تجمّد العرق في الهواء، والهواء نفخ الثوب، دخل عبر زيقي منعشاً، وأحسستُ بالرذاذ.. الجو حار.. اندفع رشاش الماء.. السماء الزرقاء قصيدة تنفست خلل أناملها.. آسفة، وتدلت عناقيد الضياء .. يا لهذا العالم الذي يدوّي.. والصدى يتتابع.. قلت ما معنى الحياة من غير زنابق؟ قال ماذا؟!! قلت هو كلام، والكلام نحن، والنور كلام، والظلمة كلام، والصخور والأشجار كلام.. والزنابق؟. هل أنت خائف؟ لماذا هذا الصمت؟. الصمت كلام مؤجل، والخوف كلام مكتوم، والقنابل ترسم حولنا دوائر سوداً.. من قال لك إنني خائف؟ يدك، عيناك.. لا .. لو كانت أمك رحمها الله عائشة الآن للاحقتك من مدينة إلى مدينة، ومن قاطع حربٍ

إلى قاطع.. أتتذكرينها؟ أتذكرها كأنها كانت معي البارحة.. حدّثيني عنها.. حدّثتني عنها.. بكت وبكيت.. سأعدّ لك الشاي، وعارف يقول الشاي خدعه حضارية، والطبيب همس في أذني لا تفعلها ثانية.. استفحال مثل هذا المرض فيه خطورة. قلت وفيه خزي وعار، وقال عارف القرن العشرون يعاني من السفلس.. كانت المرة الأولى ونبيل قال، هو الدواء.. هو الداء.. كانت تلبط وتفحّ.. هل ستأتي غداً؟ والدخان فوق البيوت، وبعد سنوات طويلة تذكّرتُ زينب وبكيت.. قالت سأجيء معك.. لا.. تعالي.. أمي قالت.. لو كنت أخذتها معي إلى السوق لما... طائرة معادية، والزنبقة غاض رواؤها.. لا تخافي.. بعيدة.. وكانت قريبة، وكان الانفجار هائلا ابتعدت الآن.. وفي السماء تشكلت شجرة دخان.. قالت إنها ابنة عمك.. كان يجب أن أتملص.. أن أكذب.. إجازتي خمسة أيام وليست سبعة.. لم أقصد.. فهمتِ كل شيء بشكل غير صحيح.. ولكنك لم تقل إن إجازتك خمسة أيام حين أتيت.. سوء تفاهم.. نسيت.. نسيت مضطراً.. والزنبقة، ما معنى الحياة من غير زنبقة؟ ماذا؟ لا شيء.. هو كلام.. النور كلام والنار كلام.. ما معنى أن تحيا من غير انتظار؟ أن أنتظر، والزنبقة نور، والنار ستهمد إلا تلك التي تئز في الشرايين.. إذن سأبقى في مهب الحلم والنور والحرية والزنبقة وأنتِ أنتِ أنتِ.. ١٩٨٨).

ثمّ لم يكن هناك إلا الفراغ.. السعه المهيأة لاستقبال البقية المفترضة.. البقية التي سكت عنها باختياره، أو رغما عنه.. فراغ مبلبل، متلبّد بأشباح أسئلة صادمة، من الصعب صياغتها،

كأنها تريد أن تبقيك في الحيرة، ولا تنتظر منك جوابا. أو كأنها قائمة أساسا لتحول دون الوقوع على أيما إجابة.

أعدت قراءة هذه الأوراق مراراً، وحواسي التي تركّزت لاحتواء ظلال الكلمات المناسبة والساقطة بذلك التسلّط المرن واللامعقول أصابها التعب والتشتت.. وظلت الأسئلة .

عمّ كان يتحدث؟.

لِمَ هذه المراوغة؟.

لمن كتبت هذه الأوراق أصلاً؟.

هل كان يتوقع أن يقرأها أحد ما؟.

هل كتبها ليتخلّص من أعباء خواطر وأفكار كانت ترهقه؟.

أتراه كتبها، في ساعة سكر منفلت، أو تحت تأثير صدمة ما؟.

أو أنه أراد البوح دفعه واحدة عن كل ما يغلّه، ويضغط عليه، ويحرقه في الأعماق؟.

وأية لغة هذه؟.

ثم من هي الزنبقة إن لم تكن سارة؟.

هي سارة ولا شك.. أكانت سارة حريقه الأبدي؟.

الريح تهسهس بين سعف الخستاوي، والمطر يصدر وشيشا متصلاً، ولا يلوح عبر النافذة إلا جزء غير واسع من السماء، معتم وبلا نجوم، تمزِّقه بين الفنية والفينة بروقٌ كالنصال.

قد تبدو الحدود بين الحقيقة والخيال في أوراق كمال ، التي انتهينا من قراءتها تواً، مموهة. وقد يكون من الصعب العثور على وشيجة تصل تلك الجمل بعضها ببعض. وقد لا تكون هناك وشيجة رابطة في الأصل تحكم وحدة تداعياته.. تداعيات كمال التي تظهر متماسكة أحيانا. ومفككة أحياناً.. واضحة أحياناً. ومبهمة في أحايين أُخر.

ولكن ماذا عن المذكّرات، وكمال ملأ عشرات الأوراق بخواطر ويوميات وذكريات، مشيراً إلى تواريخ دقيقة، وأخرى غير دقيقة، ساردا تفاصيل حوادث، أو نتفاً من تلكم التفاصيل، مبقياً، في كل مرة، جزءاً تحيطه غلالة من غموض..

أما يومياته فأرض بكر. والتوغل فيها أشبه ما يكون بدخول غابة واسعة، ترى فيها نفسك، في البدء في منطقة مكشوفة، ومعرّضة للضياء. ومن ثم، وعلى حين فجأة، تحيطك أجمة معتمة، ملتفّة، ومملوءة بالأفخاخ.

وإذ أواجه هذا الركام من الأوراق أجدني مضطرا إلى ارتكاب ممارسة قسريّة تتمثل بالانتقاء.. أن اختار من يومياته ما أحسبه مهما وموحياً، وأن أطرح جانبا ما أحسبه غير ذي أهمية.

- ٤ -

٣-آذار-١٩٨٢

الواحدة بعد منتصف الليل تدقّ الساعة في الراديو، والتوتر ما يزال.. والأمهات في المدن البعيدة، وفي القرى، لم ينمن بعد.. يقينا لم ينمن بعد، فهناك طيف، وهناك حب، وهناك خوف، وهناك هاجس.

مايس -١٩٨٢

المعارك ما تزال في أوجّها.. تلقينا الاندفاعة الأولى للعدو، وقاتلنا من منتصف الليل وحتى الصبح.. نجح العدو في فتح ثغرة على اليمين والتف حولنا غير أن التعزيزات التي وصلتنا مع الفجر كانت كافية لمساعدتنا في فك الحصار. وبين ساعة وأخرى كانت المعارك تحتدم حتى كان الليل حيث شنّ العدو هجمات متعاقبة بكثافة بشرية مجنونة. وكانت المساحة التي يحتلونها آناً ونستعيدها آناً عبارة عن شريط ضيّق طويل. وفي الصباح التالي جاءت الأوامر بانسحاب فوجنا إلى منطقة النشوة لإعادة التنظيم.

هناك في نقطة السيطرة، والغبار يخنق الظهيرة، كان شيوخ ونساء يتعلقون بأكمام الجنود.. يسألون عن أسماء وعن وحدات.

مايس-١٩٨٢

غيوم صلبة، صدئة من رمال.. كتلة نحاسية مستحوذة من الأفق إلى الأفق، ساكنة وخائفة.. خائفة لأنها ساكنة.. لا ريح.. كأن لا ريح أبداً.. وماذا عن المطر؟ هذا مطر أنفاسه من رمال.. الرمال حولي محرقة.. آماد مفتوحة.

حزيران-١٩٨٢

الأرض هشّة.. رمل وملح ومخاضات.. مصائد مخاضات.. مكيدة العتمة، ونحن نمشي.. رتل مفرد.. رجل وراءه رجل وراءه رجل، والليل هائل وخطر.. غواية حضن مريب. فليل الحرب يشعرك أن هناك من يراقبك، وأن هناك من يكمن لك، وأن مفاجأة ما في الانتظار.. أنت تنتظر المفاجأة كما تنتظر أي شي آخر.. كما تنتظر إجازتك الدورية.. كما تنتظر أخباراً من أهلك.. كما تنتظر أحلاماً مؤجلة أو موتاً مؤجلاً.. قال لي عارف ذات يوم إن هذا العالم ليس سوى أعداد من بشر ينتظرون.. وإذ يلعلع الرصاص ننبطح أرضاً.. نستتر بأي حاجز ترابي أو غير ترابي.. بأية حفرة أو شجرة، ثم نطلق النار.

ومع الفجر عدنا بشهيدين وثلاثة جرحى، وأنا كنت مصاباً برضوض في ساقي اليسرى، وكنت أظلع في سيري.

١٨ حزيران ١٩٨٢

للسعدية رائحتها، ولست أعني رائحة القدّاح في لياليها الدافئة.. لست أعني رائحة ترابها بعدما يرتوي بأول المطر..

لست أعني رائحة غنج صباياها الحذرات كالقبّرات.. وأيضاً لست أعني رائحة الفجر إذ يتنفس على مرايا سواقيها.. ما أعنيه هو ذلك العطر المسكر وهو يتشكل من هذه وتلك وتلك وتلك، غامضاً مبهجاً ينفذ حتى إلى الأحلام.

١٢- آب-١٩٨٢

ماذا لو لم تكن هناك الأحلام؟ أكنّا نطيق الدنيا وأحوالها؟ قال: لم لا تقول وأهوالها؟ ضحكت وضحك هو الآخر. وكان علينا أن نكمل الحديث.. متى؟ الآن.. الليل طويل طويل والأحلام راجفة، زاعقة، نديّة مثل لسان أنثى. وفي الأفق عناقيد التنوير، والمدافع تهدر بدوي مكتوم كإيقاع طبول بعيدة في غابة استوائية.

٢٠- آب- ١٩٨٢

جذبتني إلى وردتها.. صرتُ مثل حزمة نور خلل دورق ماء.. الماء المعتم، الضاج بالمخلوقات الجائعة، الدقيقة.. وهكذا، رأيتني أسقط كذوب الشمعة إلى قاعها العجائبي المديد.

تكثّف الليل في عينيها، وماج بشعرها عصف الرغبة فانزلقتُ الى مهوى الرقص الخالد.. الرقص/ الحمّى، ذلك الذي لم يبتكره أحد.. إيقاعه الذي يصلصل، منذ الأزل في ظلمة البشر راح يحملني.. لم يكن رقصاً.. كان طيراناً يدحض القانون الملفّق للجاذبية.. طيراناً بعيداً، عميقاً، برّياً، نقيّاً، حدّ اكتناه الموت.

١٣- تشرين الثاني-١٩٨٢

بسرعة مفاجئة تربك الحواس حدث الانفجار.. العصف الخاطف حملني في الهواء وألقاني أرضاً.. رجَّ طبلة أذني وخلّف ثقلاً وطنيناً.. رفعت رأسي والدخان يغطّيني، ورائحة البارود نفّاذة.. تحسّست جسدي.. لا أثر لجرح.. تحسّسته ثانية لأتأكد فازددت يقيناً من أنني لم أُصب.. قلبي راح يخفق بشدّة ودخل ذهني الدائرة الخاوية اللامعقولة.. قفزت إلى موضع شقّي وهناك عرفت تماماً أن الشظايا أخطأتني.. جلبة ارتفعت.. أحد جنودنا أصيب في ساقه على ما يبدو.. نعم.. كانت القنبلة أقرب إليَّ منه.. وطوال اليوم بقيت أفكر، كيف نجوت؟.

١٨- كانون الثاني -١٩٨٣

رسالة من امرأة.. رسالة غيرة متوقّعة.. بين سطورها شيء من الاعتراف بالإثم، وشيء من الوقاحة والمكابرة والتبجح.. تساءلت، لماذا الآن؟.. أهي النزوة؟ ولماذا هذا البوح، وبهذه الكيفية التي تبدو أنها من رشح اليأس؟. هذا البوح القاسي؟ لماذا كتبتْ لي؟ ماذا تبغي؟ ماذا في رأسها المغرور العنيد الذي أطيح به، كما هو واضح في رسالتها؟ يقول بعضهم، إن المرأة لا تنسى أبداً، ومهما طال الزمن، رجلاً التقته وأعجبها في يوم ما.

٧- شباط -١٩٨٣

طوفان المطر غمر الوديان وأحالها إلى أنهرٍ جارية. وعبر السفوح كانت المياه تنحدر بين الصخور متسارعة كأنها في توق

للوصال. وكانت الغيوم تتقاتل بضراوة فتهز قعقعة السيوف السماوية أركان الليل.. انكمشنا في الملاجئ. كنّا نطلُّ بين الحين والحين من المدخل لنراقب بأس شتاء الشمال، وما فعل؟

لمحت بقعة صغيرة مبللة في السقف.. قلت ربما نفذ الماء إليها، عندئذ ستكون الكارثة، ولكن رفاقي استبعدوا ذلك. ولأن البقعة أخذت تكبر. ولان قطرة أو قطرتين سقطتا منها فإن مخاوفي عجّلت بخروجي إلى الفضاء المنتشي بجنون المطر. ومن اللحظة الأولى رشقت حبات ثقيلة وجهي.. استسلمت بالرغم منّي لهجمة المياه الساقطة.. انحنيت على الأرض وغصت بأصابعي فيها لانتزع ما استطيع انتزاعها من كتل الطين، من بين الصخور لألقيها على السقف، ومن ثم استعنت بمجرفة.. دقائق طويلة مرّت وأنا أجاهد تحت الأضواء الخاطفة للبروق، ولمّا انتهيت ودخلت الملجأ كنت ألهث وأرتجف.. خلعت ملابسي المنقوعة ووقفت بينهم عارياً وهم يعلّقون ضاحكين.. قلت لهم وأنا أرتجف وأضحك: يا لكم من أنانيين أوغاد.

١- نيسان -١٩٨٣

مسامات النهار تنضح السأم والغبار والخمول. والصداع يمسك برأسي.. أهلي الآن قلقون عليَّ بالتأكيد.. أفكر في كيفية الاتصال بهم وطمأنتهم على سلامتي.. لا يلوح نذير لهجوم جديد، على الرغم من أنه لا أمان في الحرب.

٤- نيسان-١٩٨٣

في الواحدة استلمت واجبي الليلي.. في الواحدة والربع هاجت المدفعية، وترصّع الأفق بالإطلاقات الحمر الراكضة، ومشاعل التنوير.. في الواحدة والنصف قدم آمر الفصيل وقال، استعدوا للحركة، فأيقظت رفاقي. في الثانية تحرّكنا. وفي مكان ما، في العمق اتخذنا مأوى وحفرنا مواضع شقيّة. وكان الرذاذ يهمي، وعندما انتهينا من الحفر جاءت الأوامر باستئناف الحركة إلى الأمام.. نزلنا من العجلات وانتشرنا في أرض خلاء تنبشها القنابل.. أخبرونا أن جزءا من الساتر الأول احتلّه العدو، وعلينا تطهيره.. وثبنا، وخطوط النهار تتوضح. ومن موضع إلى موضع قاتلنا.. كاد أحدهم أن يرشقني لولا أنني عاجلته بإطلاقة.. خرّ هلعاً ينزف.. لبثت ذاهلا بعض الوقت قبل أن ينبِّهني عريف الفصيل ، ما بك؟. كان هذا أول شخص أُصيبه، وأنا أراه، في الحرب.. أخلته طبابة الميدان.. طهّرنا المواضع بعد اشتباك دامٍ، وعند العصر حلّت وحدة مغاوير، بدلا منّا، في المواضع المحرّرة، فانسحبنا إلى مكاننا القديم.. حين وصلنا كان الليل.. بكيت وعانيت من كوابيس.

أبداً لن نعرف كم قتلنا منهم، وكم قتلوا منّا.

٢٧- نيسان -١٩٨٣

بقي رفاقي يلعبون الدومينو، وأنا أجهزت على رواية كاملة بجلسة واحدة (سد هارتا، لهرمان هيسه).. دورة البحث عن الحقيقة.. خوض التجربة من أجل اليقين.. اليقين الذي يفلت أبداً.

٩- مايس -١٩٨٣

حيّتان قصيرتان وغليظتان التفت إحداهما على الأخرى.. كانتا في الحالة القصوى للنشوة.. اجتمعنا، على مبعدة، نراقبهما؟ قال ضاري، وهو بدوي خشن ومرح، "لينزع أحدكم لباسه الداخلي ويلقيه عليهما، ستلفظ الأنثى خرزة صغيرة، ومن يحصل عليها يستطيع استدراج أية امرأة إلى فراشه".

قال جابر: "ولماذا لا تنزع، أنت، لباسك وتلقيه عليهما؟".

ردّ ضاري: "أنا لست بحاجة إلى النساء".

قهقهنا بصخب، فقال رياض: "لا تضحكوا، ستسمعان وتبتعدان".

قال ضاري: "الحيّة لا تسمع أيها الذكي".

وضحكنا أيضاً.. وفجأة انطلقت رصاصات من بندقيتين قتلت الحيّتين، في الحال.. التفتنا.. كانا بشير ونامق. وأعقب ذلك لغط شديد.. جاء الضابط (آمر الفصيل) ليرى ماذا يحدث، وعندما علم بالأمر قال حسناً فعلتما. غير أن ضاري لم يكن راضياً عن قتل الحيّتين. قال: "الحيّة إن لم تؤذها لن تؤذيك". قال بشير: "هراء". وكادت هذه المماحكة تتحول إلى مشادّة. وانفض جمعنا حين راحت قنابر الهاون تنفلق، وهي تقترب من مواضعنا.

١٠-آب-١٩٨٣

الليل مرتقى مضلل.. ها نحن نصعد، والنجوم رعشات السماء.. ها نحن نصعد مدجّجين بالتوجّس والانتباه والبنادق، ونثار هائل متعرِّج يقطع السماء من أقصاها إلى أقصاها.. يصرّ عمّي: (إنه درب الكبش، فدية الرحمن من أجل إنقاذ إسماعيل النبي).. الليل وحدقاتنا والإطلاقات المنتظرة في الشواجير. ويصيح طائر متدثر بأمان الظلام.. وينقشع الظلام. والحالة اعتيادية، فنعود إلى ملاجئنا منهكين، والنعاس في عيوننا.

١٥أيلول-١٩٨٣

إلى بركتها الهائجة، السخيّة كان مروري شططاً.. استدراجاً إلى الخواء والإحساس باللاجدوى والصقيع.. وجدتني متورِّطاً، واستنفدت ذاتي بلسعة عارمة أخيرة.. رأيت وجهي بعينيها.. وجهي الذي تقنّع.. أو لعلّه أزال قناعه المخادع الأثير.. كان وجهي، في اللحظة تلك، من ممتلكاتها.

وألفيتها تضحك كما لو أنها استغفلتني لتسلبني آخر أشيائي. ولا أظن أن ما حصل بيني وبينها له صلة بعالم الإنسان، أو بعالم الحيوان.. كان فعلا أدنى، معتماً، وجارحاً للروح.. لم أحس بالمهانة قط مثلما أحسست بها وهي ترمقني بانتصار فذ، وتدعوني لأشاركها ابتهاجها.. كانت جذلة، سكرى، في ذروة صلفها، وكنت فارغاً كالقرع اليابس، وربما أوحت ملامحي بأنني على وشك البكاء، فمّدت يدها لتمررها على وجهي.. تواسيني.

كنت مخيّراً بين حماقتين.. أن أضربها أو أبكي، فضربتها.

١٦-أيلول-١٩٨٣

بعد تلك الساعات هناك أشعر بالقرف، وبالضيق.. لماذا نعود ونرتكب الشيء ذاته الذي قرّرنا، نادمين، تركه مراراً.. أي تسلّط لتلك الرغبة؟.

آه أيتها الزنبقة.. إنني أخونكِ.

٥- شباط -١٩٨٤

من نافذة غرفتي في الفندق أبصرت الوهج في الساحة الخلفية كما لو أنه امرأة، أو ظل برّاق لامرأة، أو دفقٌ من ضوء مسكوب في هيئة أنثى.. الشَعر.. الشَعر المنطلق كالريح.. امرأة في وضع نصف التفاتة.. القوام شاهق، والصدر المرتفع لم يظهر منه سوى نهدٌ واحد.. نهدٌ غاضب.. نهدٌ شجاع.. والحلمة مبرومة.. صغيرة وصارخة.. حلمة تلصف وسط الساحة الخالية، المظلمة.. امرأة كالشرخ متحدية ورشيقة.. وبازغة في الساحة التي يلهث فيها الظلام.

عدت إلى سريري، واستلقيت عليه بعدما أطفأت النور، وبقي الأرق يناكدني.. أغلقت جفوني فرأيتني في أرض أخرى، مغرية.. وهي معي.. تحت مظلّة ملوّنة، والمطر ينهمر.

١٧- شباط -١٩٨٤

أمس استشهد موفق.. شظية لعينة اخترقت جبينه واستقرت داخل رأسه.. جلست ذاهلاً بعد أن مضت به سيارة الاسعاف. ثم بكيت.. بكيت بألم.. إنه المفترق القاسي الغامض.. مفترق المجاهل.. كم من الوجوه ودّعنا عنده.. رحلوا بغتة من دون كلمة أخيرة.. من دون تلويحةِ يدٍ، حتى..

نيسان -١٩٨٤

تلاحقني خطوطها وألوانها.. تنحلّ ثم تتشكّل أمام ناظريّ، وإن أغمضت عينيّ تنبثق أمام عين المخيّلة ساطعةً ذات حضور لا يُقاوم.

منذ أسبوع التحقتُ بالجبهة بعد إجازتي الدورية.. منذ أسبوع وأنا تحت تأثير تلكم الألوان والخطوط.. تلكم الإشراقات.. إنها تأتيني حينما أنفرد بنفسي.. تسرقني من الحدود الفيزيقية للزمان والمكان، وتلقيني وراءهما.

هناك ، نظرتْ في عينيَّ وكأنها تحبس سؤالا استفزازيا (إن كنت أفهم؟).

عصراً، فتحت رواية (خريف البطريرك) لماركيز لعل القراءة تزيح عني رؤيا الخطوط والألوان ولكن بلا جدوى.. لم أستطع الاستمرار مع الجمل الناريّة لماركيز.

مايس ـ ١٩٨٤

تذكرتكِ والقنابل تنفلق، وتمنيتُ لو يستريح وجهكِ من عناء حرّيته كفاختة بين كفيّ، ويطلق صحو وداعته.

مايس ـ ١٩٨٤

قالت: في عينيك اصفرار. فاضطربت، وشعرت بخجل وانقباض في المعدة، وكأنها عرّت أعماقي وكشفت عن أشيائي السرّية، وما ارتكبت من خطايا.

ثلاث ساعات من الانقياد لنداء الجسد الأعمى حتى رجعت بوخز في الروح.

قالت: "في عينيك اصفرار". فأحسست أنها تدينني.. رمقتها بحزن ولم أنبس.

إن كلمة واحدة أنطقها في حضورها من المحتمل أن تفضحني، أو ربما تجعلني أجهش بالبكاء.

١٨-ايلول-١٩٨٤

بحثت طويلا عن مدخل للكلام.. أوشكت على التحدّث إليها.. عمَّ وكيف؟

كنت حائراً، وحزينا.. إجازتي تنتهي اليوم، وغدا مع أذان الفجر سأحمل حقيبتي وأسراري وأتوجّه إلى ميدان القتال.

وهناك.. بعد يوم أو يومين سينسدل الستار الشفيف الذي يتيح النظر إلى الوراء بأسىً وتوق.

٢٠ ـ تشرين الثاني ـ ١٩٨٤

حسن حطّم اليوم عدداً من صحون الطعام الخزفية رداً على إتلاف أشرطته المدوِّخة.. الآثار في المطبخ كانت تشي بدمار حقيقي.. غضب عمّي، واكتأبت امرأة عمّي، وساد البيت توتر.. وكنت وحدي منشرحاً، إذ كان يجب أن يفعل حسن ما فعل من أجل أن أقول: إنها الحرب.. ومن أجل أن تضحك هي.

٩ـ كانون الثاني ـ ١٩٨٥

خمسة من جنودنا أُستشهدوا في الليلة الفائتة.. كان الاشتباك عنيفاً في الأرض الحرام.. خمسة جنود أخليناهم بعدما فرّ جنود العدو من غير أن يسحبوا قتلاهم.. أكثر من عشرة أفراد، ربما، تُركوا للجوارح .

خمسة جنود مع أمانيهم المجهضة ودّعناهم.. بملابسهم الكاكيّة المعفّرة بالطين والدم وذرات الشظايا والرصاص ودّعناهم.

آذار ـ١٩٨٥

على مهل تسلّقتِ جبل القلب.. كان وقع مرورك حنينا يغور إلى شرايين الثلج.. يا لهذا الركام الميّت من ألف عام، كيف استفاق؟.

٢- نيسان-١٩٨٥

يومان ونحن نحفر في أرضٍ صخرية.. لم تكن تلك الطبقة الصلبة تستجيب لمعاولنا إلا بشق الأنفس.. وأخيراً ملأنا الأكياس بالرمال، وأحكمنا سقوف ملاجئنا.. إن الانتقال من قاطع إلى آخر، في الجبهة، يكون صعباً دائماً، ومثيراً للأعصاب.. نهدِّم أولا ملاجئنا القديمة لنحمل معنا الأكياس والصفائح والأخشاب. ثم بعد ساعات طويلة من الرحلة نبدأ ببناء ملاجئ جديدة.. نحن الآن بين تلال القاطع الأوسط.. قيل لنا: أيام أو أسابيع وتعودون إلى الجنوب.

حزيران -١٩٨٥

قلت: إنها واضحة كالشمس... اعترض عارف: الشمس غير واضحة. إنها حقيقية، ولكنها غير واضحة.. انظر إليها، سيزوغ بصرك، ولن ترى إلا طوفاناً من أشعة لا معقولة تهاجم عينيك.. إنها الحقيقة موجودة وقويّة في ذاتها ومؤثرة، ولكنها غير واضحة.

عارف عقل بارد، وحاد.. أحيانا أخاله مجرد عقل ليس إلاّ.. مرآة مقعّرة ينعكس فيها الكون كتلاً وأبعاداً وألواناً، بلا أبهة أو جمال.

صرخ بوجه نبيل ذات مرة: إن بيني وبينك مسافة قرنين.. كانا يخوضان في مناقشة عنيدة، فزعل نبيل، ولم يتصالحا إلا صباح يوم العيد.

١٢ كانون الأول ــ ١٩٨٥

محطة المعقل في بداية الليل بردانة.. أشجارها المنتشية، أو ربما المعذّبة في المطر تئن من وجع، أو من لذّة. أنينها الممطوط، الرفيع يثير بكتريا النعاس، والقطار لن ينطلق قبل ساعة أخرى.. أشتري مجلة مصوّرة.. أقلّب صفحاتها.. لا رغبة لي في القراءة.

وفي زاوية من الصالة امرأة أنيقة.. منذ ثمانية وعشرين يوما لم أر امرأة.. تمليتها بشيء من الاندهاش، وهي واقفة تتحدث إلى رجل.. ثم تشاغلت بتصفح المجلة للمرة الثانية.

الراحة تغمرني، وغداً ، ضحىً، سأكون في البيت.

١٤ - كانون الاول-١٩٨٥

ناولني العم شاكر - ساعي البريد العتيد - رسالة آتية من مكان بعيد، وهو يبتسم.

لماذا تنبشين ضريح أمل منسي؟ كيف لكِ أن تعيدي رميم كلمات قديمة، غطّتها طبقات الضباب، إلى الحياة؟

ما الذي يذكّرك بي بين آونة وأخرى؟ ولماذا بعد هذه الأشهر الطويلة كلها؟ ماذا ترومين؟

١٦- كانون الأول-١٩٨٥

قال نبيل في المستشفى: "أنت مجنون.. تدخل في مشادّة بالأيدي من أجل امرأة من هذا النوع".

قلت: "ومن قال لك إنني عاقل أصلاً؟".

وضحكت، فشعرت بالألم في شفتي وأنفي.. في وجهي كله. ولمّا دخلت البيت، استيقظ محمد.. قلت له بصوت متكسر: "رجاءً هيئ لي الحمّام، ولا تدع أحداً يفطن".

سألني: "ما الذي جرى؟".

وألّح في السؤال: "هل تشاجرت؟".

فأخذت أطلق الشتائم.

فقال: "قل لي ما الذي حصل؟".

فقلت متبرِّماً: "من يراني ماذا يقول غير أنني تشاجرت؟".

قال: "مع من، ولِمَ؟".

قلت: "لو تحدّثت إليك لما انتهيت حتى الصباح".

وكان اليوم التالي عصيباً.. حاصرني عمّي بالأسئلة حتى كدت أعترف له بكل شيء وأخرج من البيت.. وإلى الأبد.

تقلّص الورم في شفتي، غير أن الزرقة الكامدة تحت العين اليسرى ظلّت هي هي.

قلت لنبيل: لن أعود إليها ثانية.

قال: سنرى.

كانون الثاني -١٩٨٦

يقول عارف: "الحب حماقة.. ولكنها رائعة. وحتى لو كانت رائعة فستبقى حماقة على أية حال".

ويقول : "أتدري أن قدراً من الحماقة مطلوب لكي نستمر".

عارف مربك ومثير وضروري ..وشنيع أحياناً.

١٥-اذار-١٩٨٦

تتقاتل البروق ووميض المدافع، والرصاص، والمطر..

ليلة أخرى تتميّز غيظاً.. ليلة أخرى تنزاح فيها الأحلام وتحلّ بدلاً منها هوام القلق عند الحافات غير الأمينة.. في قلب الكرنفال حيث الحدود بين الحياة والموت مموّهة. وتغتصب القنابل عفاف الظلام.. الزعيق اللامسموع للروح، والدنيا مشغولة بالصراخ، وكل شيء يصرخ، على طريقته.

٢- نيسان- ١٩٨٦

بين الصخور تسرّب الاخضرار، ونمت الشقائق، وأزاهير بأشكال وألوان شتى، وانبجست نباتات الفطر بقبعاتها البيض. ومع مجرى النهر انحدر الريحان، وأشجار القوغ الضخمة، وثمة المينا تسلقت الأشجار والتفّت حول أغصانها بنشوة ولذة، وقد ازدحمت بثمارها السود الصغيرة كالخرز.

ربيع منشرح، على صدره حفرٌ دكناء من أثر القنابل/ قنابلهم. ربيع حي، بالرغم من القنابل.

تموز- ١٩٨٦

أعولّت الريح في الممرّات الشجريّة.. فحيح وجيع لأفعى خرافيّة جريحة يقول عنه عارف إنه نحيب الزمن.

أسندت ظهري لجذع النخلة وأغلقت عينيّ.. كنتُ مشوّش التفكير.. محمد ونبيل وعلي في الجبهة، وعارف في كليته ببغداد، وسارة في عزلتها الملوّنة، وعمّي في المطحنة، وخالتي مشغولة.

وشعرتُ، كم، أنا وحيد.. وحيد.

وفجأة زمجرت طائرة، وألقت قنابلها.

خرجتُ راكضاً.. رأيت الدخان.. كان يتصاعد من الطرف الآخر للبلدة.. أسرعت إلى هناك.. أقبلت سيارة إسعاف.. قالوا إن طفلاً واحداً فقط قد أصيب.. وجدته على ذراعيّ أبيه هادئاً.

كان وحده هادئاً في لجّة الضجيج والصراخ.. ودمه يتدفق متوهّجاً... تملّكني حزن قاتم.. حزن لم يبعثه فيَّ مرأى عشرات الإصابات في ميدان القتال.

كان طفلاً طاعناً في الطفولة.

أيلول- ١٩٨٦

عنوةً تمتطي الشظايا الريح لتسكنَ جسداً أو لحاء شجرة وتموت. أهي الريح تعوي أم الشظايا؟.

شباط - ١٩٨٧

تتبارى البروق فوق أراجيح الليل.. تتهشم كالقوارير وتقذف رشقاتها الهائلة. ونحن نسير متباعدين خلف عريف الفصيل.. أحذيتنا الثقيلة تخوض في البرك بصعوبة. وبنادقنا تجوس الظلام.. نسير، والأصابع على ألسنة النار، والمطر كثيف.. المطر احتراق سماوي.. احتراق في الرؤيا، وما انتهينا إلا والصباح يتحشرج تحت قبضة الغيوم.. جلسنا مبللين في الملاجئ..

بخار الشاي يتصاعد.. الوعدُ بالدفء والانتعاش.

٥- آذار- ١٩٨٧

قنبلة تنفجر.. يضطرب نسق الطيور الجميل في السماء البعيدة.. قنبلة في البرية تنفجر.. تزعق نورسة.. أنبطح وأدفن وجهي في كمّ القمصلة المترب.

في زعيق النورسة رعب كالح.. والشظايا تذبح عروق الهواء. وقنبلة أخرى تعلن عن نفسها على مسمع من الطيور.. طيور الأوز التي ابتعدت الآن بفوضى.. إنها جميلة أيضاً في فوضاها.

١٨ ـ آذار ـ ١٩٨٧

اندفع التيار عنيفاً يلطم جدار الشاطئ العالي، المتآكل، ويرشقنا بقطرات كبيرة من رذاذه.. والغيوم الخفيضة تنبئ عن جولة أخرى من مطر غزير قد يتساقط لساعات. ونبيل للمرة المائة يلومني لأنني اخترت مثل هذا الوقت اللعين لصيد السمك.. قال: "الأسماك تلوذ في مثل هذا الجو بالقيعان والزوايا الهادئة". وصرخ، وجسمه منكمش في معطفه الجلدي: "لا أفهم لماذا لا تريد العودة؟. أنت عنيد مثل حمار". قلت: "مثل بغل يا بغل.. إذا كنت ترغب بالفرار لن أمنعك".. "أتعرف؟". قال لي: "إنك مجنون، لكن لا أحد للأسف اكتشف هذه المزيّة الفذّة فيك". "سأثبت لك نظريتك الآن". واحتويته، كأنني أحاول إلقاءه في المجرى العكر السريع، من فوق الربوة التي تآكل جدارها بفعل قوة المياه.. صاح وهو يقاومني: "يا الله.. ستنهار الأرض تحتنا ويجرفنا الفيضان". وألفاني أضحك بعصبية، ولم يضحك، وجرّني بعيداً عن الشاطئ حيث الضحك تركني واهن القوى، يسهل التلاعب بي واقتيادي.. وقف، وحدّق في عينيّ وقال: "كمال، عليك أن تصارحني.. أنت تواجه مشكلة، أليس كذلك؟". لم أقل له؛ نعم، أنا واقع في حبٍ يائسٍ مستحيل.. قلت له: "أنت على حق.. هذه الساعة ليست ملائمة للصيد، لنرجع".. حملنا

عدّة الصيد والريح تؤرجحنا.. وقبل أن نفترق في الزقاق ويدخل كلٌ منّا إلى بيته، قال؛ لا أدري لماذا أجاري حماراً مثلك". قلت ضاحكاً: "هذا لأنك حمارٌ مثلي".. هزّ سبابته أمام وجهي وكأنه يؤكد ما قلت، فضحكنا معاً..

هطل المطر ثقيلاً، غزيراً وأنا أدخل البيت وأرى سارة تلملم آخر قطع الملابس المنشورة على حبل الغسيل، في الباحة.

مايس- ١٩٨٧

وحده الموت يجرِّدك من الأقنعة.. وحده الموت غير مؤهل للتواري وراء أيّما خدعة.. إنه وحده الأمير، على الرغم من أن الحياة حلوة.. حلوة.. حلوة.

٢١- مايس- ١٩٨٧

لم تأتِ نحوي.. لم أذهب إليها، غير أننا ألفينا أنفسنا هكذا، وقد حلّت فيّ، وحللتُ فيها. ولم نعدُ واحداً.. كان كل منا يصير الآخر، ويبقى ذاته.. كان الغمرُ ضوءاً.. كان العالم زماناً معلّقاً بين مكانين، ومكاناً يؤازره زمني وزمن عينيها.. كنّا معاً العالمَ يجسِّد نبله بإقصاء الخطايا.

قالت: "حبيبي".

قلت: "حبيبتي.

روحها تلهث، وروحي سلّة امتنان، وكل لحظة تمر تسمو وتشرق، وأسمو وأشرق، حتى إذا انتهينا. قالت:

"لا تبتعد".

قلت: "ومَن قال إنني أريد الابتعاد؟".

وكانت عشر أصابع تصنع عشّاً لحمامات سوف تقبل، وعشرٌ أُخر حرةً، تبتكرُ تلويحةً.. إيماءة حنان، وموسيقا.

حزيران- ١٩٨٧

ما أصعب التحصّن ضد الأوهام، ولم تكن وصال إلا وهماً.

وهمٌ آخر، وتاريخ المرء هو هذا التشكيل المروّع من الحقائق والأوهام. والأوهام تعلّمنا مثلما تفعل الحقائق إلى أن يغدو الوهم نفسه حقيقة حين يسفر عن وجهه.

عرفتُ وصال مصادفة، ودعتني إلى عزلتها.. وجدتها شهيّة ودافئة ومتفتحة ورقيقة ومتفهِّمة وشفافة وكريمة وصريحة.. بلا عُقد أو مطبّات في الروح.

أخذتني إلى عريها، وأخذتها إلى عريي.. وصرخنا من بهجةٍ ورضا، وافترقنا على موعد بلقاء آخر بعد شهر.

بعد شهر كانت وصال رمادية، وباردة، وكذّابة، ومراوغة.

للحظة أحسست أنني أدفع ثانيةً ثمن تضليلي لنفسي.

٣- آب - ١٩٨٧

هذه الأمداء المائية يغمرها الضوء الناري.. الشمس الزاعقة التي تسمِّم الهواء وتكفِّن الجهات.. يصعد طير غريب صارخاً.. يسيل فوق أعناق البردي وتتبدد في هلام ما بعد الظهيرة.

قال الضابط : "لنترك زوارقنا هنا".

ونزلنا، نخوض في ممرات مريبة بين نباتات وحشية نافرة.. حذار من أفاعي الماء.. حذار من المباغتة.. حذار من مهاوي الطين.

المساء يهبط.. يترقرق بظلِّه الشاسع الأسمر، وتتوضّح في السكون وشوشة الماء. وإذ يتزامن لغطهم نتوزع مستترين بالعرائش المعتمة ومتأهبين للرمي. وبعد أن نكمل القوس حولهم نفتح النار. والنار تئز فوق صفحة الماء ونسمعهم يصرخون ، وبعد نصف ساعة لا يبقى منهم إلا ثلاثة يريدون الاستسلام صائحين.

كانوا حظيرة استطلاع متقدمة في قلب الهور ..تركنا قتلاهم وجئنا بالثلاثة الباقين أسرى. ومع حلول الفجر وصلنا مواضعنا على حافة الهور.

كنّا ما نزال في العراء عندما بدأ قصفهم المجنون. وكنت أهمُّ بالانبطاح حين أصابتني شظية لاسعه في الكتف فانبثق الدم حاراً كثيفاً يضرِّج ملابسي قبل أن تتساقط قطراته فوق الماء والعشب والطين.

- ٥ -

يبلبلني هذا الفيضُ من الخفايا.. هذه المستترات التي تكسر شرنقتها لتخرج إلى النور.. إلى العراء. وها أنا ذا أشعر بأن كمالاً ينأى عنّي كلّما مضيت خطوة أخرى باتجاهه، كما لو أنه يلعب معي لعبة (الختّيلة). أو ربما يرمي إلى إقناعي بأن هذه اللعبة ليست سهلة على الإطلاق، وأن لها سبلها الملتوية وقواعدها الماكرة. وأنني من الممكن أن أضل وأتوه بين الجزر الصغيرة الكثيرة، وهي تتكشف لي واحدة واحدة، والخلجان الخطرة التي تكوّنها.

أنّى لي أن أمسك بالمشهد بكلّيته؟. أن أرسم الأرخبيل، وأن أستوعب جغرافية الأوقيانوس؟. أقصد، أن أنجز الرواية (رواية كمال).

يحترق الحبر على الورق. يفصحُ عن شعاع ينبثّ من بؤرة عصيّة لا يمكن التحديق فيها.. بؤرة عمياء تُطلق سراح ملايين من الخطوط الفتيّة المربكة. ولا يهمّها في أي فضاء ستتلاشى.. تلك هي رواية كمال، وهي تتفلّت في ألف اتجاه، وتمعنُ في التشعّب والغموض، ليتشرّبها أخيراً أفق رجراج لعوب، ومحرِّض، يسعى إلى الإغواء.

المضي حتى آخر الشوط (آخر كلمة) يُقلقني، يتركني مرتاباً وحائراً. والكفّ عن المضي مُحال، يشبه الإقدام على الانتحار. إنها الورطة التي تختارها بمحض الحرية، وتبقى تكابد بالضد

من مكائدها حتى لو أُتيحت لك الفرصة للهرب والخلاص.. إنها ورطتك المبتغاة.

ها هو كمال يتشظى بين يديّ.. يتبعثر في ألف ذرة وذرة، ويملأ الفضاء من حولي، ويسكنني. فمذ قرّرت كتابة روايته، وهو يسطو على أفكاري، وانفعالاتي، وهواجسي. ويعلن عن حضوره. ويصرّ على نشر فضائح احتراقاته.

ووصال، من تكون هي الأخرى؟. أهذا اسمها الحقيقي، أم تراه استعارهُ لها، مثلما يفعل دائماً؟ سألت نبيلاً:

"وصال؟!!! والله لا أعرف".

لست موقناً من أن كمالاً كان يناور من أجل المواربة والتخفّي. ولكن حياته، كانت هكذا، أبداً، تجري في الصمت، وعلى مسافةٍ من كلِّ واحدٍ منا، نحن أصدقاؤه وخاصّته، بعيداً عن فضولنا وآفاق توقّعاتنا. فقد كان كمال عصيّاً مثل كفّ الصبّار، وحرّاً مثل غيمة، وفيه نكهة مطر الصحراء.. كان كمال هكذا، لا مصادفةً، لا اختياراً، بل طبيعياً بسلوك محتّم، كما اللقالق التي لا تهاجر إلا في موسم الهجرة، وفي غفلةٍ منّا. وكما البراعم التي تتفتّق من دون أن ننتبه لها.

ومنذ اللحظة التي فيها غدا كمال بطل روايتي، بدا من المنطقي أن أتعاطى معه شخصيةً مختلقة.. شخصية على ورق.. وكان هناك، بالمقابل، الآخرون (أبي وأمي وعمي

وسارة وعارف وحسن ونبيل وعلي ومها وحنان ووصال وأنا.... الخ).

هؤلاء جميعاً أضحوا شخصيات في (رواية)، لهم حيواتهم المتخيّلة المستقلّة.. يتقاطعون ويتصادمون ويتآلفون ويخوضون معترك الحياة معاً.

إن هذا الشدّ بين العمل الفني والمرجع.. بين الخيال والتاريخ.. بين الخريطة الموضوعة على وفق ما يلائم حركة الشخصيّات والأحداث وبين المكان الواقعي.. أقول؛ إن هذا الشدّ يجنح بي نحو منظور مغاير. ويمنح لغتي نبرة لم أعتدها، كأنني اكتشف الأوردة الخفيّة لهذه اللغة، وأفهم نبضها، ورعشة روحها.

الشخصية بذرة العمل الروائي.. جد شخصية تنشىء رواية (أظنه سدْ فيلد من قال هذا).. والمعضلة هي في الكيفية التي تجسِّد بها هذه الشخصية فنيّاً. وكمال وجود مقنّع في الواقع والتاريخ، فكيف يمكن أن يكون كذلك داخل رواية؟.

وأنا أؤسس شخصية كمال فكّرت أن يعرض هو جوانب من ذاته من خلال كتاباته (وثائقه) لأتجنب، قدر ما أستطيع، استخدام القناع.. لم أبغِ أن أنطق أنا بدلاً عنه، أن أمثّله... أردته أن يمثّل هو نفسه، كما شاء، وأن ينطق باسمه. على الرغم من أنني لا أستطيع، في هذه الحالة، تفادي التشتت الذي ستبدو عليه الرواية من خلال بثِّ ما ترك في أوراقه، وهي كثيرة، والتي، لا تلوح للوهلة الأولى أن ثمة جامعاً يجمعها. ناهيك عمّا أمارسه

أنا، من انتقاء وتقديم وتأخير في هذا العرض، والذي سيمنح، قطعاً، أفق القراءة دلالات خاصة. ومن يدري، فلربما كان مثل هذا التكنيك ضرورياً ليتعرف القارئ، مباشرة، على صوته (صوت كمال)، ويقع على مخابئ نفسه، وما حوتها من أفكار وانفعالات ومشاعر وأحاسيس وهواجس ورؤى وأحلام وكوابيس وتناقضات وإحباطات وآمال وأسرار.

وكان السؤال الآخر الذي ناقشته مع عارف هو؛ كيف باستطاعتي أن أرسم شخصية كمال وأجعلها تتحرك على خلفية الحرب؟.

لم يعتد كمال التحدّث عن الحرب.. كان، في كل مرة يأتي في إجازة، يضع الحرب وراءه، ولا يلتفت إليها، وكأنه لن يعود مرة أخرى. أو كأن الحرب ليست سوى حلم عابر خرج منه مرغماً ذاته على نسيانه. وكان يحمل حقيبته حالما تنقضي مدة إجازته راحلاً إلى خنادق النار وكأنه ماضٍ إلى مصير محدّد سلفاً ولا خلاص منه.. وصمته هذا كان منفاه.. كان مكان غربته، وزمان غربته.

قطع...

قال لي نبيل ذات مرة، إن كمالاً أسّر له:

"ما يثقل عليّ دائماً هو إحساسي بأني غريب على الرغم مما فعلوه من أجلي.. حدبهم وحبهم وحرصهم وحنانهم وأيضاً؛ شفقتهم.. هذا كله يُشعرني بالعرفان تجاههم، ويمنحني بعضاً من

عزاء. لكنه أبداً لا يجتثّني من هذا الشعور الكاسح المزمن المرير بأنني غريب.. وبأنني راحلٌ في يومٍ ما".

قطع..

الشظّية أحرقت كتفه.. تخدّر ساعده الأيسر، وصرخ الألم في لحمه بقسوة، وكان الفجر يبزغ من أفق الهور.

قطرةُ دم تسقط.. تأتي مويجة لتأخذها.. قطرة أخرى ومويجة فتيّة.. قطرات تسقط ويشهق النور، والألم يحتدم.. يمد كفّه في طين الضفة ليضلل الألم.. الألم يصعد به نحو الحافة الحرجة للإغماء، وأصابعه توغل في الطين مثل جذر.

قال:

"في مستشفى العمارة فتحتُ عينيّ على بهاء خمري، وابتسامة سأبقى أحنّ إليها إلى الأبد".

وقال:

"كانت أصابعها ناعمة، حانية، دافئة، عذبة تُشفي أفضل من أدوية العالم كلها".

كنت أجلس قربه، أقرأ له من ديوان شعر لمحمود درويش، وهو ممدد على سريره، يقاطعني منتشياً. كأن الشعر يُشيع فيه فائض انفعال موجع.

"تلك امرأة عابرة.. نقيّة.. وربما لن أراها مرة أخرى أبداً، غير أنني في ساعة خروجي من المستشفى قلت لها: "افترقنا لنلتقي.. أبداً سنلتقي". ففوجئت بها تبكي.. كانت تبكي وتضحك في الوقت نفسه".

سألته عن اسمها.. قال:

"حنان.. اسمها حنان فتصوّر.. باسقة ومورقة وترفل بالزهر الأبيض مثل شجرة لوز".

ضحكت، وقلت له:

"تُشبِّه امرأة جنوبية بشجرة لا تنبت إلاّ في الشمال؟!".

قال :

"هي عراقية يا محمد.. في إهابها الشمال والجنوب.. ثم أن العراقيات جميلات، وربما لهذا السبب يكثر بيننا الشعراء".

لم أكن في البيت حين جاء مع جرحه.. كنتُ في الجبهة.. دخل البيت واهناً.. خدّاه غائران، وفي عينيه اصفرار وشجن.. أحاط به أهله (أبي وأمي وإخوتي).. أجلسوه على الأريكة، ثم أجبروه على الاضطجاع في الفراش.

أعدّت له أمي الحلوى وما طاب من الطعام، وراحت سارة تحمل له أكواب الشاي والعصير والحليب والقهوة والكاكاو. وجلب له أبي الفاكهة، بينما استطاع هو أن يقنع عارفاً بأن

يشتري له علب بيرة، كان يكرعها خفية، ومن ثم يهرِّبها حسن فارغة ليقذفها بعيداً عند أكوام القمامة.

وكان أبو فلاح - المضمِّد الأقدم في المركز الصحي لبلدتنا - يأتي كل يوم، ينظِّف له جرحه، ويبدِّل ضماداته، ويحقنه بالمضادات الحيوية.

بعد أيام من مجيئه صادفتْ إجازتي، وقبل أن أدخل عليه الغرفة أعلموني كيف جُرح على حافة أهوار العمارة.

دلفت إلى الغرفة وصحت:

"قطة".

أكمل حالاً:

"بسبع أرواح".

عانقته وقّبلته، وجلستُ فأعاد عليّ حكاية جرحه، وفي اليوم التالي وبينما كنت أقرأ له من شعر محمود درويش تحدّث عن حنان التي لن يراها ثانية، أبداً.

استدراك..

للهمِّ خطوط كابية، من شأنِ أمي أن تقتنصها، وتلحّ في السؤال من أجل أن يفصح أبي عن همّه. وأبي عاد من المطحنة، يحفّ به صمت ثقيل.

"حسن سيزرع الخضار هذا الموسم".

قالت أمي ذلك، وهي تريد أن تخفِّف عن أبي شيئاً ممّا يبهظه.

"الزراعة صارت تدرّ ربحاً كبيراً".

هزَّ أبي رأسه ولم يتكلم.

مذ تسرّحنا أنا وعارف وحسن من الجيش، ونحن نحاول أن نجد عملاً.. أي عمل. سارة وحدها حصلت على وظيفة مدرِّسة في ثانوية البنات. أما الدكّان الصغير الذي استأجرناه في نهاية السوق لنبيع فيه المواد الغذائية والمنزلية فكان يخسر يوما بعد آخر، وتتناقص محتوياته، فاضطررنا إلى غلقه.

قالت أمي:

"ومحمد.. قدّم أوراقه للتعيين".

ثم، حين لم تتلق إجابة.. أية إجابة، قالت:

"سيكون موظفاً في المصرف.. صحيح أن راتبه سيكون ضئيلاً إلا أن الأمور لن تبقى هكذا".

"الله كريم".

وعارف قال: "سأشتغل عامل بناء". فنهرته.

"خريج كلية الهندسة ويريد أن يشتغل عامل بناء".

قال: "إلى حين أن أجد عملاً مناسباً".

"لن تموت من الجوع حتى ذلك الوقت".

ولم يعلّق عارف بشيء. وكانت سارة جالسة تصحِّح كراسات طالباتها. دخل حسن فسألته أمي:

"ماذا فعلت؟".

"حصلنا على أرض ممتازة.. قطعة قريبة من الشط".

قلت:

"ليست لديك خبرة في الزراعة".

"لي شريكي، له خبرة".

"ومن هو شريكك؟".

"رعد".

"رعد؟! ولكنه يبيع السجائر على الرصيف في السوق".

"سيتركه.. هذا العمل لا يُطعم خبزاً".

قالت سارة:

"سنأكل خبزاً مع وحش الطاوة ([1]) الذي ستزرعه إن شاء الله".

شعر حسن بنبرة السخرية في قول سارة، فقال:

[1] - وحش الطاوة : هو التسمية التي اطلقها العراقيون على الباذنجان تهكماً لزيادة استهلاكهم له نظراً لرخص سعره وتوفره بكثرة في السنين الاولى للحصار.

"لمَ لا؟.. أن تأكلي وحش الطاوة أفضل من أن تصحِّحي هذه الكراسات التي لا تُطعم.. أم أنها تطعم؟".

صاحت سارة بحنق:

"انظروا.. كم هو وقح؟".

"أنتِ التي بدأتِ".

قالت أمي:

"كفاكما.. لسنا فارغين لسماع مثل هذه السخافات".

صلى أبي العصر، وخرج إلى المقهى..

قال حسن:

"وحتى يحين وقت الحرث سأبيع السجائر".

"أبوك لن يرضى".

"وما العيب في ذلك؟".

"لا عيب.. أبوك لن يرضى".

قال عارف:

"أنا لا أجد ضيراً في ذلك".

قالت أمي:

"أبوكم يتمنى لكل منكم عملاً لائقاً".

قلت:

"هذا زمن صعب".

قال عارف:

"والمعايير ينبغي أن تختلف".

قالت سارة:

"أبوك لن يقتنع".

قال حسن:

"أم أنتِ التي لا تريدين.. مدرِّسة ثانوية وتخجلين أن يكون لكِ أخ يبيع السجائر".

"أنا لا أخجل"..

"وأبي لا يأنف.. إنه رجل مؤمن".

نهضت سارة، ودلفت إلى غرفتها. ودخلتُ أنا غرفتي، وفتحت صندوق كمال.

قطع..

ذات ليلة من رمضان تذلل له الحظ، ونادراً ما فعل معه.. جلسنا في صفّين متقابلين نلعب (المحيبس).. كلانا في الصف نفسه، في مواجهة شباب من محلة التكية.. بدا أن حاسة التخاطر لديه نفّاذة، كما لو أن ملاكاً محبّاً شحذها له.. تخاطرٌ من طرف

واحد.. كان يحدِّقُ في العيون ويربكها. وفي لحظة يحدسُ أي يدٍ تخبئ الخاتم فيصفعها صارخاً؛ هاته.. وفي ثلاث جولات جعل غرماءنا في حيرة من أمرهم، حتى انتهوا مهزومين مثيرين للشفقة، وكلٌ يتهم صاحبه بالتقصير والغباء.. صاح أحدهم بنبرة تحدٍ يائس:

"إن كنتم رجالاً حقاً فلنلعب (الصينية)"

قال بهدوء: "ولِمَ لا؟. لنلعب"

دارت الصينية بفناجينها المعدنية الأحد عشر أمام نظرته الباسمة البرّاقة، واستقرت.. وضع كف اليد اليمنى على الفنجان ثلاثة/ يمين. وبأصابع يده اليسرى قذف الفناجين الأخرى خارج الصينية، وكانت فارغة كلها.. الخرزة المعقوفة البيضاء كانت تحت الفنجان الذي احتضنه بكفّه، فارتفعت أصواتنا متهللين فرحين. وبقينا نلعب حتى وقت السحور.. فزنا في ست جولات وخسرنا واحدة.. الجولة التي خسرناها أخطأ فيها كمال مرتين..

ونحن نتناول طعام سحورنا على عجل، قال لي:

"خفت من نفسي.. شعرتُ وكأنني أرى ما تحت الفناجين.. تعمّدت أن أرفع فنجاناً فارغاً لأمنحهم فرصة الفوز ولو لمرة واحدة ليحتفظوا ببعض كرامتهم".

قلت له مازحاً:

"أتراك على اتصال بكائنات المرّيخ؟".

ردّ ضاحكاً: "يبدو أنه شيء من هذا القبيل".

ما حدث في تلك الليلة لم يتكرر.. حالفة الحظ مرّات، ولكن بنسبة أقل بكثير قياساً بتلك الليلة الغريبة من رمضان.

أوراق الماء..
أوراق النار

- ١ -

يبدأ وعي كمال بالبزوغ بالتماس مع النار.. مرأى النار وهي تسلب منه أمه وأخته.. ويمر هذا الوعي بمحطات نار.. نار احتراقه حباً، ونار الحرب التي ستحرق حواف روايته.. روايته التي لن تتم على الرغم من أنه حلم بها طويلاً. وعلى الرغم ممّا ترك من ميراث ورقي ولا ورقي. وعلى الرغم من محاولتي كتابة روايته.. رواية كمال ستبقى ناقصة، بحاجة في كل مرة تُعاد قراءتها فيها إلى إضافة فصل آخر، أو هامش آخر، أو تفصيل آخر.

كمال ابن النار.. يحمل حريقه في داخله، ويتطلع أبداً إلى الماء.. يتمزق بين النار والماء.. يعبر الفاصلة المشدودة المتوترة بينهما ذاهباً، آيباً، والفاصلة خطٌّ دقيق وصلب، وقائم برسوخ.

كيف لكمال أن يهرب من ضرام الروح؟ ذلك اللهب القاسي الشرس الذي ينعكس من الحريق القديم، حريق كوابيسه.

النار تترقرق هناك، في منبت عينيه.. إنها تذكِّره دوماً بالموت والفقدان. لكن هربه إلى الماء يحمل توقاً سريّاً، ربما، إلى اللحاق بمن غابوا. أم ترى أن مغامرات دخوله النار هي من قبيل الرغبة المكبوتة للتطهّر، أو إسكات الشعور بالذنب أو التوق إلى الموت.. ذلك الموت الرمزي الذي من رماده تقوم عنقاء الحياة؟.

وحرائق كمال كانت تحثّه على الولوج في الماء.. كان الماء قبلته ومبتغاه، غير أنه لم يرد لحرائقه أن تنطفئ وتتحوّل إلى محض رماد.. كان يسعى إلى الماء خوفاً من الحريق.. ويسعى إلى النار خوفاً من الغرق.. كان ابن النار وابن الماء في الوقت عينه. والنقيضان حملهما في عقله وأعصابه وقلبه وخلاياه بتوازن عجيب.. بيده اليمنى مجمرة النار، وبيده اليسرى قارورة الماء، وبينهما ذلك الاستعداد العالي في الروح، والذي أنقذه من الاختلال.. ويخيّل إليَّ أنه حين تطاولت عليه نار الحرب قذف عليها قارورة الماء. لكن ماذا تستطيع قارورة الماء أن تفعل إزاء النار العظيمة المرعبة؟ ولكنه رأى أن يقذف بهذه القارورة، ولا يتردد.

لم يدخل كمال الحرب إلا عَرَضاً. ولم يتعامل معها إلاّ حدثاً عابراً، لكن الحرب غيرّت قدر حياته، قبل أن تبتلعه في جوفها الهائل النهم.

أكثر من ست سنين قاتل كمال خلالها في الجبهة على طول الحدود العراقية الإيرانية، وأمضى في الكويت قرابة تسعة أشهر. ومع ذلك ظلّت الحرب، في نظره، وضعاً حلمياً. حدثاً، لا يبدو أنه ينتمي إلى حقيقة هذا العالم. شيئاً لا يتلاءم مع جريان الماء وخضرة الأرض وثمر الشجر، وكركرة الأطفال، وشهقات العشّاق، وكرة القدم، وقراءة الكتب، والشبق الجنسي. شيئاً، ليس هو محض نقيض للحياة. بل كما لو أنه اللاحياة.. أو الحياة وقد عُلِّقت إلى أجلٍّ مجهول.

- ٢ -

كانت سارة تبكي، وهي تشدّ بإحدى يديها على دميتها القرعاء التي كان عارف ينتف شعرها في كل جولة من جولات المناكدة، والشجار الاعتباطي.. كانت سارة تنشج نشيجاً خانقاً، متقطِّعاً، راعشاً، وهي متعلِّقة بيدها الثانية بطرفٍ من عباءة أمي. وأمي مع نساء أخرجهن الخوف من مكامنهن الأزلية فوقفن أمام البيت الملتهب يلطمن ويصرخن، والبيت ينفث دخاناً أسود ثقيلاً، ينعقد في كتلة راكدة فوق البلدة غيمةً كابوسية، والرجال يحملون الماء في دلاء وقدور، من الجدول القريب، ويرشّونه من دون جدوى.

أقبل عمّي رشيد من الجامع لاهثاً فأمسك به بعض الرجال ليمنعوه من دخول البيت، وجاء كمال راكضاً من السوق فاحتواه شاب بين ذراعيه.. كانت النار تلوك الأشياء وتُخرج ألسنتها الشيطانية من النافذة، وعشرات الدلاء والقدور المملوءة بالماء تتلقفها الأيدي وتسكبها في الشدق الجحيمي الفاغر.

صرخ كمال وهو يضرب الشاب بقبضتيه الصغيرتين في صدره.

"دعني.. دعني".

وشرع يبكي:

"أين أمي.. أين زينب؟".

وانفجر صوته:

"ماما.. زينب".

وتنبهتُ إلى نفسي، إذْ كان جسمي طوال الوقت يرتجف، وكنتُ أبكي. أُخمدت النار، وامتلأ النهار الخريفي القصي ذاك برائحة شواط لحم بشري. وجثم على البلدة ظلّ الكارثة. فجلس عمّي رشيد على الأرض بعينين جاحظتين مرعوبتين وفكٍ متدلٍ، وأغمي على كمال.

في المستوصف الصحّي فتح كمال عينيه وسأل عن أمه وعن زينب، وكان جسمه يختض مثل خرقة منشورة في الريح. وعندما جاءوا به إلى بيتنا في عربة يجرّها حصان عجوز أبى أن يضع في فمه ماءً أو طعاماً في ذلك اليوم. وفي اليوم الذي أعقبه، ولم ينبس بكلمة واحدة وهو قاعد يبكي بحرقة. وأغمي عليه مرّة أخرى في الليل، ومرّة ثالثة ظهيرة اليوم التالي.

قطع..

كتب كمال في واحدة من أوراقه:

[حلم نزق يطاردني دائماً، منذ حريق بعيد.. زهرة مخيفة تنبجس حمراء كاوية، وتلاحقني. وعندما احترقت الدبابة تسمّرتُ مشدوهاً قبالتها، واستيقظ الحيوان المذعور في داخلي.. تسمرتُ ثوانيَ دامية حتى جذبتني زرقة السماء العريضة، وهي قائمة بلا أبالية خلف الدبابة وفوقها، بعناد إلى النار.. تسلّقت الدبابة، التي كانت على وشك الانفجار بين لحظة وأخرى،

وأخرجتهما.. جندي، وضابط برتبة ملازم أول.. كان الملازم الأول ميتاً، أما الجندي فكان يقاوم جرحاً شلّه تماماً، والنار تقترب منه].

استدراك..

التهم الحريق أشياء المنزل القليلة.. القنفات الخشب، والكرسيان الخشب، والفرش القديمة، وحصران الخوص، والدولاب الكبير وما به من ملابس، وأدوات المطبخ. وكذلك المرأة التي حاصرتها النار مع ابنتها الصغيرة، وتركتهما لحماً محترقاً. وما تزال رائحة شواط تُشم، كما يقول جارهم القديم - العم خليفة ـ حتى يومنا هذا. لا سيما في الليالي التي يسكن فيها الهواء.

بعد ذلك الحريق الذي لم يُبقِ من متاع الدنيا لتلك العائلة المنكوبة سوى صندوق خشبي كان مركوناً في آخر غرفة لم تصلها النار، جمعنا أبي وكمال نائم، وقال هامساً:

"كمال هذا ابن عمِّكم.. اجعلوه يندمج في العائلة.. عاملوه كأخ لكم، ولا تذكِّروه أبداً ببلواه، ولا تحسِّسوه بأنكم تشفقون عليه.. ستؤذونه إن فعلتم ذلك.. إنه ليس بحاجة إلى الشفقة، بل إلى النسيان.. إلى اليقين بأنكم أهله".

قطع: (من أوراق كمال)

بالعربة (الربل) حملوني الى بيت عمي.. سألت عن أمي وعن زينب، وعن أبي.. لم يجبني أحد.. أحضروا لي طعاماً.. مرقاً في صحن من الألمنيوم، ورغيف خبز.

"لا أريد طعاماً... أريد أمي".

"إن سمع أبوك أنك لا تأكل، سيزعل".

وكنت أبكي بالرغم من الوخز الذي في بلعومي وأحشائي، وبعد أيام قلت لعمي:

"ألا تقول إن أبي في الجامع.. أريد أن أراه".

"ستراه.. اصبر يا بني.. غداً أو بعد غد سآخذك إليه إن شاء الله".

ومرّ الغد، واليوم الذي يليه.. مرّت أيام كابية، فظّة.. مرّت ليالي الرعب والأحلام الهوجاء. وذات يوم مسّد عمي شعر رأسي بحنو وقال:

"كمال.. حان الوقت لأفي لك بوعدي وآخذك إلى أبيك".

سرت الرجفة في داخلي، وانتفض قلبي، وغمرني إحساس كالح بالحزن.

بعد صلاة العصر ألبسوني دشداشة نظيفة، ومشّطوا شعري، وارتدى عمي عمامته وأمسكني من يدي، ومضى بي إلى

الجامع. كان خوف غامض يتنفس فيَّ لم أفقه له سبباً، وهناك قال عمي آمراً:

"هذا الشيخ عبد العليم.. قبِّل يده".

تقدّمت منه بارتباك وقبّلت ظاهر يده، فانحنى ولثم جبيني.. كان ملمس لحيته ناعماً على وجهي.

"ما شاء الله.. ما شاء الله.. كمال صار رجلاً".

بعدها قادني عمّي إلى دالية الجامع.. كان هناك رجل يغرز طرف مسحاته في التربة بحيوية لا تنسجم مع نحول بدنه، وتقوّس ظهره... كان وجهه إلى الجهة المعاكسة لنا، لذا لم أتبينه، حتى إذا اقتربنا منه راحت رجلاي تخوناننني.. قال عمّي بما يشبه الهمس:

"رشيد.. شيخ رشيد".

فجاشت دموعي.. استدار أبي بوجه مترب ولحية شعثاء ووجنتين شاحبتين وعيون غاض منها ماء الحياة.. بدا لي وكأنه خارج لتوِّه من القبر.. لم ينادني.. لم يقل شيئاً.. كان جامداً مثل نصب عتيق مشبع بالبؤس.

"لماذا أنت واقف هكذا.. اذهب وقبّل أباك".

قال عمّي هذا بنبرة مشروخة، غير أنني لم أستطع أن أخطو أية خطوة.. كنت أبكي وأبي غائم الأسارير، وعمّي لا يعرف ما ينبغي عليه أن يفعله.

"البركة فيكما يا رشيد.. كمال كنز.. بعد سنوات قليلة سيكبر ويتزوج.. وستسعد بأبنائه".

وجعلت أنتحب، وأبي لا يريم .

"لا حول ولا قوة إلا بالله".

أدار أبي ظهره لنا، واستلّ مسحاته، وطعنَ بها الأرض بحنق. وفي طريق العودة قال عمّي:

"كمال، اسمعني جيداً.. والدك بخير إلاّ أن وقع الصدمة كان شديداً عليه.. حالة مؤقتة.. بعد أيام، إن شاء الله، سيرجع إلى طبيعته".

وبعد صمت قصير أردف:

"ثم .. ثم أنا أيضاً والدك.. وخالتك أم محمد أمك.. ومحمد وعارف وسارة وحسن أخوتك.. أليس كذلك؟. ستتربى معهم.. لا فرق بينك وبينهم.. يشهد الله أنني أحبك مثلما أحبهم وأكثر.. أنت من لحمي ودمي كما هم أبنائي.. ماذا تقول؟".

"نعم يا عمّي".

كانت الدموع قد جفت في عينيّ.

"أسمعت الشيخ عبد العليم، ماذا قال.. قال إنك صرت رجلاً.. يعني أنك تفهم الآن كل شيء، وكيف لا؟.. ألست طالباً في الصف الرابع؟ .. هل تجلس مع محمد على الرحلة نفسها؟.

"لا عمّي.. أجلسُ مع نبيل".

"خير إن شاء الله.. أريدكم جميعاً أن تنجحوا، وتكون لكم مراكزكم في المجتمع.. وأنت ماذا ترغب أن تكون؟".

"جندياً".

"يا كمال.. الجميع يصيرون جنوداً.. من معه شهادة، ومن ليست معه شهادة.. الجميع يصيرون جنوداً، ولكن غير الجندية ماذا تريد أن تكون؟".

"لا أدري".

"إنْ كنت تحب الحياة العسكرية فادرس حتى تتخرج ضابطاً.. من الممكن أن تكون مهندساً وضابطاً، أو طبيباً وضابطاً في الوقت نفسه.. المهم أن تجتهد الآن، وستكون ما قدّر الله سبحانه وتعالى لك أن تكونه.. هل كلامي صحيح؟".

"نعم يا عمّي".

وعند فم الزقاق قال:

"انظر.. تلك سارة تلعب.. اذهب والعب معها.. لا تدعها توسّخ نفسها بمياه المجرى الآسنة. أما أنا فسأعود إلى الجامع لأصلي المغرب".

* * *

فوجئنا بأبي بعد أسبوعين من زيارتنا له يدخل البيت.. كان عمّي في المطحنة، وخالتي تعجن، وكنّا أنا ومحمد نلعب الكرة في الباحة.. لبثنا جميعاً واجمين.. كانت هيئة أبي رثّة مخيفة.. قال وكأن صوته صادر من أعماق كهف:

"كمال".

قامت خالتي باضطراب:

"أهلاً بأبي كمال.. تعال استرح".

"تعال يا كمال".

"اذهب إلى أبيك".

ولم أذهب إليه، ولكنه هو الذي جاء واحتضنني.

"كيف حالك؟".

اكتفيت بهز رأسي.. مدّ يده إلى جيبه وأخرج كيساً صغيراً من القماش وناولني إياه.. أخذته بأصابع مرتجفة، والتفت هو إلى خالتي:

"يا شفيقة... كمال أمانة في رقبتكم".

"إنه في عيوننا".

"في أمان الله".

"يا أبا كمال.. ابق لتتغدى معنا".

رفض بإيماءة من يده وخرج، ولم أره بعد ذلك قط.. أما الكيس فكان يحوي أحد عشر ديناراً وربع الدينار.

- ٣ -

كان ثمة ماء، ولم تكن ثمة ريح أو برد، وأشجار التوت والصفصاف والسدر والتين تفرش ظلالاً مخرّمة.. أمسكنا بالأغصان المدلاة، ورحنا نتأرجح فوق الجدول لنترك أجسادنا، بعد ذلك، تسقط في الماء.. أطفالاً كنّا. أولاداً وبنات. والجدول ينحدر صافياً من أعالي البلدة. يتفرع لإسقاء البساتين، ثم لا ندري أين ينتهي.. ينحدر صافياً لنعكِّره نحن تحت الظلال المخرّمة لأشجار التوت والصفصاف والسدر والتين.

نفتح أذرعنا ونقفز.. يطرطش الماء تحتنا.. نوهم أنفسنا بأننا نسبح ونعوم حقيقة.. نشقّ صفحة الماء وأرجلنا مغروزة في طين القاع.. نخفي رؤوسنا في الماء ونخرجها، فنسعل ونبصق.

وجاءا معاً، على الرغم من أن وصيّة أبي كانت قاطعة:

"لا تأخذوا معكم سارة إلى الجدول.. عيب.. يجب أن تتعلم سارة الأصول منذ الآن".

صرخ عارف:

"عودي إلى البيت".

وقفت سارة وقد انسحب الدم من وجهها.

".....".

قال كمال:

"خالتي، قالت: ابقيا عشر دقائق ثم ارجعا".

"أبي لا يقبل".

"خالتي قالت".

والتفتَ إلى سارة:

"تعالي ندخل الماء من هناك.. الماء هناك أصفى".

بعيداً عنّا نزلا إلى الجدول، وشرعا يتراشقان بالماء، وعارف يراقبهما بغيظ. وعندما تركا الماء جعلا يركضان وهما يكركران.

قطع: (من أوراق كمال)

خضنا في الماء الموحل، السريع الجريان.. قال:

"النهر ليس عميقاً.. ارفعوا بنادقكم وجعبكم فوق رؤوسكم".

وحتى مستوى أثداء الرجال تبللت البدلات.. قال، بعد خروجنا إلى الجانب الآخر:

"الريح ستجفِّف ملابسكم".

والريح كانت باردة، ريح الليل الجهم.. قال:

"هرولوا.. الهرولة ستمنحكم الدفء".

هرولنا.. جرينا لنراوغ الريح الباردة، وهي تسوط أجسادنا.. قال:

"حاولوا أن تفكّروا بشيء آخر غير هذا البرد لتنسوه.. أمامكم أربعة كيلومترات أخرى.

وقرّرت أن أفكر بشيء آخر غير هذا الماء وهذه الريح، وهذا البرد وهذا الظلام. ولكن، هل من السهل حقاً أن تنسى.. أن تفتح نافذة صغيرة في الجدار الصلد، وتهرب منها؟

لم نتردد طويلاً في اتخاذ ذلك القرار الجريء بسلوك طريق البساتين ليلاً للوصول إلى النهر.. كان الظلام طاغياً، ونحن نقطع الممرات الملتوية الضيّقة التي تحفّها الأشجار وجدران الأسيجة العالية. ونبيل يحمل مصباحه اليدوي الصغير الذي صنعه له عارف بقطعة كرتون سميكة دُورَّت على شكل أنبوبة وأحكم شدّها بشريط لاصق وُضعت فيها ثلاثة أحجار كبيرة رُبطت مع مصباح صغير جداً بسلك ذي غلاف من النايلون الأحمر. كانت الأحجار قديمة وضعيفة، ولم يكن من السهل الحصول على ستين فلساً لاقتناء ثلاثة أحجار جديدة، لذا كان مرشدنا ضوءاً واهناً إلى جانب خبرتنا الطويلة في ارتياد هذه المسالك نهاراً.

كنا ثلاثة.. أنا ونبيل وعلي.. كانت مغامرة مبكرة أغرانا بها نبيل.. قال:

"سنصيد سمكاً كثيراً، فبمجرد أن نسلِّط الضوء على بقعة ما ستأتي الأسماك، وعندما ترى الطُعم ستتقاتل من أجله.. أؤكد لكم أن ثلاث صنّارات ستصيد عشرين سمكة خلال ساعتين".

لعشرين سمكة كبيرة يسيل اللعاب قطعاً، لذا فقد أخذنا معنا سلّة كبيرة.. سأل علي:

"والجن؟".

"أي جن أيها الخرف؟ نحن الجن.. أنت جن".

ضحكنا وسألت أنا:

"والحيوانات المفترسة؟".

"الحيوانات لا تقترب من ثلاثة أشخاص.. إنها تبحث عن فريسة سهلة".

قال علي:

"وافترض أن قطيعاً من الذئاب هاجمنا".

"لا تكن خوّافاً.. في بساتين البلدة كلها لا توجد أكثر من أربعة ذئاب، وخمسة خنازير برّية.. وكل منها في مكان مختلف".

"وكيف عرفت ذلك أيها الشاطر".

"فلاحو البساتين يقولون هذا".

واقتنعنا.. سرنا في الليل الكامد متماسكين، تحت حشود من النجوم المشعشعة، والريح تصفر لتلقي في نفوسنا الروع.

"هل أنت خائف؟".

"طبعا لا".

وكنتُ خائفاً، ولم أتنفس بارتياح إلاّ بعد أن تركنا البساتين وراءنا، وأمسينا في الأرض الحصباء المفتوحة.

"ها قد وصلنا".

قال نبيل، بعد أن توضّحت في آذاننا وشوشة النهر.. وقال علي:

"أرى أشباحاً".

"إنها أشجار.. أشجار الضفة الثانية.. إذا كنت خائفاً ارجع".

على مرتفع قضم تيار النهر حافته وقفنا.. قال نبيل:

"هذا أفضل مكان لأن الماء فيه هادئ.. الأسماك غالباً ما تتجمع في الأمكنة الهادئة".

"منْ قال لك إن هذا المكان هادئ.. انظر.. إنها دوّامة".

"دوّامة؟.. أنت خرف".

"ألا تسمع الهدير".

"إنه هدير النهر كله".

"لنجرِّب".

ألقينا صنّاراتنا في الماء المعتم بعد أن وضعنا في نهاياتها المعقوفة ديداناً جمعناها عصراً من الأوحال القريبة من الجدول، وانتظرنا.

بعد دقائق صاح نبيل:

"سمكة".

وراح يسحب خيط صنّارته:

"سمكة.. سمكة.. ألم أقل لكم؟".

كانت سمكة صغيرة لا يتجاوز طولها القدم، إلاّ أنها أصابت نبيلاً بفرح مجنون فأخذ يضرب الأرض برجليه ابتهاجاً.

"سمكة.. سمكة".

وفجأة مادت الأرض تحتنا، وانهار كل شيء.. أطلقنا، دفعة واحدة، صيحات ذعر ونحن ننزلق إلى الماء.. استطعت التشبث بنبيل إلاّ أن علياً أفلت مني، ولم تغص سوى أرجلنا، أنا ونبيل، في الغرين اللزج، أما علي فبات يطلق صرخات استغاثة.. لقد صار في النهر.. قال نبيل بصوت مخنوق:

"الدوّامة سحبته".

"ألم أقل لك؟".

"حاول أن تسبح يا علي".

هل كان يسمعنا؟. قلت لنبيل:

"سأسبح لأنقذه".

"ستغرق معه".

"أغرق معه أشرف من أن أعود وأخبر عن غرقه".

"اصبر يا كمال.. ها هو يخرج".

"علي".

كان صوتاً غاضباً، رفيعاً، متوتراً، متوسلاً ردّده النهر من بعدي.

"حاول أن تسبح".

"إنه يقاوم".

تييس حلقي، وامتد المحل إلى الأعماق، وأحسستني موشكاً على البكاء.

"ها هو.. امسكني يا نبيل".

وكان نبيل يرتجف:

"اللعنة عليك.. امسكني من يدي".

حتى إذا اقترب أمسكتُ يده وسحبته، فتشبث بيدي، وأرجلنا لمّا تزل غائصة في وحل الحافة.

"هيا.. هذا هو".

وانحنيت بأقصى ما أستطيع، وكان علي يلبط ويشهق.. مسّت أصابعي أصابعه إلاّ أن الدوامة كانت تلعب به، وبنا.. قلت:

"حاول يا علي مرة ثانية".

قال نبيل:

"ستأخذنا الدوّامة أيضاً".

"لتأخذنا إلى جهنم.. اسكت وإلاّ ألقيت بك إليها".

وسكت نبيل.

"سأخطو خطوة أخرى.. افعل مثلي.. أنت ورائي فلِمَ الخوف؟".

بصعوبة أخرجتُ رجليّ من الوحل وخطوتُ بهما، وصدع نبيل لأمري، والدوّامة تدور بعلي.. انحنيتُ كرّة أخرى، وعلي لم أعد أراه، وخفت أن تكون جنيّات القاع فازت به وحبسته.. صرخت يائساً:

"علي".

وقررت بيني وبين نفسي أن أقفز وسط الدوّامة، وليكن ما يكون.. أبصرت علياً.. أبصرت يده قريبة مني.. تشبثت بمعصمه.. صحت به:

"ساعدني أنت أيضاً لأستطيع أن أخرجك".

كنا قوتين متضادتين تعمل إحداهما عكس اتجاه الثانية.

"اسحبني يا نبيل".

القوتان المتضادتان باتتا على يميني وشمالي، واستمتنا في المحاولة. وألفيتني أبكي عندما سلّمني النهرُ عليّاً.. سلّمني إياه فجأة، برضا ودون مقابل.. هكذا، وكأنه كان يلهو معنا طوال الوقت. وتعانقنا في الطين، ودموعنا تنهمر. ومن ثمّ زحفنا باذلين جهداً باتجاه الأرض اليابسة.. مددنا علياً على الرمل الطري، وكان يشخر، وتمدد قربه نبيل لاهثاً.. قلبتُ علياً على بطنه بصعوبة ورحت اضغط على ظهره وأنا ما زلت أبكي.. فكرت أن هذه هي الطريقة المثلى لإخراج الماء من معدته، ولمّا أجلسته قام نبيل ليعينني بعد أن التقط أنفاسه.. قلت:

"اللعنة على أسماكك".

لم يرد، فأضفت:

"إن تكلمت أشبعتك ضرباً".

"لن أتكلم يا كمال.. الحمد لله أننا أنقذناه".

همست في أذنه:

"أكنت تريدنا أن نتركه يغرق؟".

"أبداً، لم أقل هذا".

وكنّا في حالة بائسة من الإعياء والاضطراب، وملابسنا موحلة.

"كيف صرت يا علي؟".

"بخيـــــــــ....".

قالها بضعف بالعاً الراء.

"سننتظر إلى أن تتمكن من المشي، أو نكون نحن قادرين على حملك".

"بإمكاني أن أمشي".

"استرح قليلاً".

"سنتأخر".

وعلى الرغم من التعب كنا نركض متباعدين، وبنادقنا مشرعة.. قال:

"سنصل عمّا قريب".

قال:

"مهمتنا محددة.. احتلال رأس الجسر".

قال:

"سنباغتهم من وراء ظهورهم، في الظلام".

كان الظلام يتعزّز تحت الغيوم، والريح الباردة.

قال:

"ربما ستمطر".

قال:

"توقّفوا لنأخذ قسطاً من الراحة".

أما نحن فلم نقل شيئاً. جلسنا لاهثين في البقعة المقابلة لالتواء الفرع الثاني من النهر.. قال:

"بعد دقائق سنكون في أرض يتوجب علينا اجتيازها زحفاً إلى أن أصدر أمراً بالانقضاض على العدو".

قال:

"نجاحنا في احتلال رأس الجسر على الفرع الثاني للنهر هو مفتاح نجاح قواتنا، هذه الليلة في هجومها".

قلت في سرّي:

"المفتاح في لبّ النخلة".

قلت في سرّي:

"إنها الحرب".

قلت في سرّي:

"واحد منّا لا بدّ من أن يرجع".

قال:

"انتهت استراحتكم.. سنمشي بعض الوقت، ثم نزحف حتى حقل الألغام.. الهندسة فتحت لنا منفذاً ودليلنا معنا".

قال:

"ازحفوا الآن".

وزحفنا بلا نأمة، في العراء، في الليل الذي عسعس، وملابسنا جفّفتها الرياح. والغيوم كانت تزحف هي الأخرى...

دعونا الله ألا تمطر.. فلم تمطر.

فطنا إلى القمر فوقنا يرسل أنفاسه الفضّية، ويجعل الرؤية اعتيادية.. ولم نكن آسفين على المصباح اليدوي الصغير الذي فقدناه مع صناراتنا الثلاث، والسلّة وفيها السمكة اليتيمة التي اصطادها نبيل.. ولمّا انتهينا من درب البساتين، ووجدنا أنفسنا عند تخوم الحي صار في مقدور علي أن يسير من دون الحاجة إلى إسنادنا.

ضحكنا... ضحكنا طويلاً من الأعماق.. علتْ قهقهاتنا، فقطعها على حين غرة لغط بشري مريب.. سكّنا بقلوب واجفة حينما صاح صوت عرفت فيه هياج غضب عمّي:

"تضحكون يا ملاعين".

وانهالت علينا الشتائم..

"أين كنتم يا عديمي الحياء".

"يا أبالسة".

"يا أغبياء".

"كانوا يسبحون.. إنهم ملوّثون بالوحل".

"تسبحون في الليل، وتقلقوننا.. لعنة الله عليكم".

قلت بنبرة خفيضة:

"ما هذا؟ الحي كله خارج لاستقبالنا".

قال نبيل:

"لا تتكلما عن حادثة الغرق.. قولوا ذهبنا لنصطاد سمكاً".

وما كانوا راغبين في سماع أجوبتنا ومسوِّغاتنا. وأدركت أن أفضل ما يمكن أن أفعله، وأنا أتلقى الصفعة الأولى والأخيرة من عمّي طوال حياتي، هو أن أسكت، أما علي ونبيل فقد أُشبعا ضرباً في تلك الليلة.

بعد أكثر من عقد ونصف العقد من هذا الحادث، وقبل أشهر من استشهاده في معارك شرق دجلة ذكّرت علياً بهذا كله ونحن نسبح في الهور ليلاً.. علمت أن وحدته قريبة فاستأذنت وهرعت لزيارته.. كان الجو حاراً ودبقاً.

"إننا نسبح خلافاً للأوامر".

"دقائق وسنخرج".

"أتذكر تلك الليلة؟".

"أية ليلة؟".

"ليلة الدوّامة".

قال ضاحكاً:

"كأنها البارحة".

وكنتُ قد نزلت لتوّي من السيارة في ليلة عاصفة، والشارع الرئيسي للبلدة خالٍ إلا مني عندما أثارت انتباهي لافتة سوداء معلّقة بين عمودين من أعمدة الحديقة العامة تتلاعب بها الريح... اقتربت منها وانحباس يعتري صدري، وقلبي يجاهد منتفضاً، وقرأت الاسم .

كنتُ وحدي لذا لم يسمع أحد الصرخة المكتومة التي أطلقتها:

"لا... علي... لا".

سقطت مني حقيبتي، وتهالكتُ على الرصيف تحت اللافتة السوداء، وطفقتُ بألمٍ أبكي.

قال:

"افتحوا النار".

فاستشاطت النار.. نار كالتنين، هائلة وراقصة أربكت خطوط التوقّع.. انفضحت الأشياء، المديات، الكائنات الحية وغير الحية، على أرض مستوية، والنار تطاول الغيوم، والغيوم تدفعها الريح، والريح باردة، وما من سبيل إلا الانقضاض عليهم.. تداخلت صفوف الرصاص، وكانت الظلال تتقاطع.. تتضخّم، ثم تضمحل، ولاحت رؤوس الحراب.

قال المعلم:

"مَن بإمكانه قراءة النشيد أمام الطلبة؟".

قلت:

"أنا".

وانبعث صوتي رفيعاً وعميقاً:

"لاحت رؤوس الحرابِ تلمع بين الروابي".

قال المعلم:

"صوتك جميل يا كمال.. فيه قوة وعذوبة.. هيا يا طلاب.. لننشد جميعاً؛ ابـــ..... دأ".

لاحت رؤوس الحراب، واصطبغت بالدم.. تفتحت جروح، وتعالت صيحات، ومقطورة البنزين التي أصابتها رصاصاتنا الأولى على الرغم من الساتر الترابي حولها بقيت دقائقَ تنير الجوار.

وسط قيامة النار عبرت صور قديمة فتذكرت محمداً، وتذكرت عارفاً، وتذكرت سارة، وتذكرت الجدول المار محاذاة البساتين القريبة.. *محمد بقي ساكتاً وامتعض عارف وصاح، ودخلنا أنا وسارة الماء.*

قال المعلم:

"كمال ينشد كأنه محارب.. صفقوا له".

فصفقوا لي حتى احمرّت أكفهم.

وآخر رصاصتين أطلقتهما في الهواء، وكنتُ عطشان والنهر على مبعدة خطوات.. كان بلعومي يابساً كأنني لم أشرب ماءً منذ سنين.

دنوت من النهر.. قرفصتُ عند الضفة، لأغرف بكفّي قليلاً من الماء.. كان الماء بارداً ومعتماً.. انزلقت رجليّ وكدتُ أقع لولا أنني وازنت نفسي وتراجعت. وفي محاولتي الثانية استطعت أن أشرب.. شربت كثيراً.

- ٤ -

غائرةٌ هي تلك الليلة وقصيّة.. قصيّة، بيد أنها كانتْ.. كانت ظلماء ورهيبة.. استيقظت هلعاً، وتهيأ لي أن الزلزال ضرب العالم.. كان سريره يهتز وهو ينتفض ويصرخ.. كان يكابد ضد قوة ما، تضغط على أنفاسه فيصرخ.. صرخاته كانت حشرجة مقاومة عنيدة. وأضاء أبي النور، وكنتُ ما أزال خائفاً.

تنفستُ بعمق شاعراً بشيء من الأمان، وجلس هو في السرير مغسولاً بالعرق وأسنانه تصطك. وأقبلت أمي واحتضنته.. كنت ذاهلاً وأمي تبكي وهو يبكي، وأبي يتمتم:

"لا حول ولا قوة إلا بالله"

يكرِّرها مرات، ثم يسأل:

"ماذا أصابك يا بني؟ لا تخف.. إنه الخنّاس... اقرأ {قل أعوذ برب الناس}.. هل تحفظها؟ اقرأها كل ليلة قبل أن تنام وستطمئن نفسك".

في اليوم التالي، قبل الغروب، أحرقت أمي الحرمل تحت النخلة.. تصاعد دخان أبيض، وانبعثت رائحة حريفة.

"تعال يا كمال".

وجعلته يقفز فوق الدخان، وكانت تردد كلمات.. تغمغم بكلمات مبهمة بتوسّل وحزن. ثم أذابت قطعة رصاص، وسكبتها في صحن ماء وضعته على رأسه.. تبلور شكل غريب.. قالت:

"انظروا.. إنه الشيطان، أراد تخويف كمال بالنار.. ألا ترونه؟. انظروا جيداً.. بعد اليوم لن يجرؤ على إزعاجه.. إنه الآن يجري هارباً منّا.. مبتعداً عن بيتنا.. لقد وصل التلال البعيدة، وما زال يجري.. لن تلقاه يا بني إن شاء الله أبداً"

احتضَنته وقبّلته.

تناولتُ قطعة الرصاص المتشكِّلة وأمعنتُ النظر فيها.. بحثتُ عن الشيطان وعن النار، وتمنيتُ لو كنتُ أملك عينيّ أمي وقدرتهما. وشكّك عارف في أن تكون تلك صورة الشيطان والنار.. قال لي هامساً كي لا تسمعه أمي:

"ذلك هراء وخرافة.. إنها أشبه ما تكون بالأمعاء، ملتوية، وملتف بعضها على بعض"

قلت: "إني أرى رجلاً جالساً، ملتمّاً على نفسه، كأنه يتجنب عاصفة رملية"

وكانت أمي واثقة من أن الشيطان لن يعود بمخالبه النارية ثانية ليخيف كمالاً. والحق، أنه لم يعد بعد ذلك.. على الأقل، هذا ما أوحى به نوم كمال الهادئ. فصراعه الصارخ مع الكابوس لم يتكرر. ويوماً بعد آخر كنّا نجد كمالاً أكثر تفتحاً وثقة بالنفس، ورغبة في اللعب.

قالت أمي باعتداد :

"أنا التي أشفيته"

وصار كمال جزءاً من العائلة.. عنصراً ضرورياً لا يستقيم الكل إلاّ به. وإذ ذاك بدأ يقرأ.. أحضر عارف الكتب إلى البيت (روايات ودواوين شعر وكتباً في التاريخ والعلوم... الخ) وأغرى بها كمالاً فراح يقرأ. وشرعت سارة تقرأ هي الأخرى، غير أنني لم أصب بالعدوى إلا بعد ذلك بأشهر، ولكنني حين طالعتُ أولى الكلمات تملّكني عشق القراءة، وأضحيتُ شيخهم كما يقول عارف.

تذكرتُ أنني لم أقرأ شيئاً منذ أيام.. خرجتُ إلى الباحة.. فوجئت بأمي قاعدة تحت النخلة تغزل الصوف. ضحكتُ وقلت مازحاً:

"يبدو أنك لا تريدين أن تتطوري".

"أي تطوّر يا محمد؟. إن الغزل ينسيني هموم الدنيا".

"أليس هناك عمل أجدى تستطيعين القيام به؟".

"ليس هناك أمتع من غزل الصوف.. إنه يذكّرني بأشياء وأشياء.. زمان".

طفق كمال يستعير مني كتباً ليقرأها.. تضخّمت مكتبتي حتى ضاقت بها أمي بعد أن زحفت الكتب إلى كل مكان داخل البيت.. قالت:

"ألا تشبع؟"

"أشبع، ولكن الجوع يُعاود ضغطه عليَّ".

وكان كمال يبتسم كلما باغتني مستغرقاً في القراءة.

"الكتب ستنتف شعرك. وفي يوم قريب ستلتمع صلعتك".

"أنت أيضاً تقرأ.. ألم تلتهم ثلاثة كتب خلال شهر واحد".

"ثلاثة فقط.. أما أنت فأراهن أنك أتيت على عشرة".

وقهقهنا. ودخلت أمي الغرفة وهي تضحك.. كانت تسمعنا وهي واقفة وراء النافذة.. كانت فرحة بنا وفخور.

"أولادي أربعة."

كانت تردد وتضيف:

"وبنت واحدة هي أجمل البنات".

فيقول حسن هازئاً:

"القرد في عين أمه....."

ولا تدعه أمي يكمل عبارته، فنضحك، وتضربه سارة على كتفه، وهي تضحك أيضاً، وتلتمع عينا أمي.. تلك الالتماعة أذكرها وأنا أرى بروق السواد تتناحر الآن في عينيها وهي جالسة تحت النخلة تغزل الصوف.

"ما زلت تلبسين السواد".

"لم يبق من العمر ما يغري بلون آخر".

أمي، تحت النخلة، صلدة وهي تغزل الصوف.. الرخاوة الطفولية حول فمها لا تسلبها الرصانة، وهذا الثبات المغذّى بنسغ آتٍ من جذور عميقة تتفرع حتى تصل قلب الأرض وتشتبك هناك...

أتأملها في جلستها الوقور.. بهيّة على الرغم من الشيخوخة المبكرة.. أصابعها النحيلة البيضاء وهي تسوّي الصوف وتدوّر المغزل فيها إصرار حيوي.. إنها مشغولة، لا بالصوف ولكن بأمر دخيلتها..

أراها تقاوم، غير أن البصر يرتد أحياناً وهو يحاول هَتك خطوط أساريرها، في محاولة لكشف أسرارها.. أمي.. إنها عصيّة.. حضور في برج عصيّ.. مشعّ، وآسر.. قلتُ بغتةً:

"هذه النخلة تذكّرني بكمال".

اتسعت حدقتاها، وتوقفت عن غزل الصوف، وأحسستُ أنها تكبت آهة حرى سرعان ما ستتخلص منها.. شهقت بحسرة، وطرحت ما بيديها جانباً.. قالت:

"لا أدري إن كانت أمه ستحزن عليه، لو كانت حيّة تُرزق حتى الآن، بقدر ما حزنت عليه أنا.. أحسُّ أحياناً بالرغم من كل الذي فعلته من أجله.. أحسُّ بالتقصير، وبأنني لم أمنحه ما كان يجب أن أمنحه إياه."

"أماه.. كنت تشعرينه بحبك واهتمامك أكثر ممّا كنتِ تشعرينا نحن أولادك الحقيقيين."

اختنقت في عينيها الدموع وتهدّج صوتها:

"نهرته ذات مرة، قبل سنين.. قلت له: عيب، إنها ابنة عمك.. حمل حقيبته وغادر.. قطع إجازته.. قال: إنهم أعطوه إجازة لخمسة أيام، لا سبعة أيام مثل كل مرّة.. أخبرته أنني لم أقصد.. قال: لا ، لا... المسألة طبيعية وأنكِ فسّرت كل شيء خطأً، أنا آسف.. لم أستطع منعه. ولم ينتظر أن أجهّز له ما قسّم الله من طعام وغيره مثلما كنتُ أفعل، في العادة.. قال: في الإجازة القادمة.. خفتُ ألاّ يعود، غير أنه عاد.. قال إنه سليم النيّة.. فكّرت أن أطرح فكرة الزواج على أبيك.. أختك اعترضت.. قالت: إنها لا تفكِّر بالزواج، وإن فكّرت فقطعاً لن تفكِّر بالزواج منه.. هكذا قالت".

الكلمات الأخيرة خرجت متكسِّرة، متحشرجة.

"أماه.. كفاكِ بكاءً.. أرجوكِ".

أيه إيماءة مقلقة تلك التي بثّتها أمي وهي تتكلّم؟ عمّ كانت تتحدّث؟ ماذا فعل كمال بالتحديد؟. تلميحتها تلك خلطت عليّ الأوراق.. واقتربت منها بعد ذلك أكثر من مرة لأسألها إلاّ أنني كنت في كل مرة أختلق أمراً آخر أستنجد به في اللحظة الأخيرة.

وعدت إلى صندوق كمال علّه يُسعفني. وكانت إشارته لذلك الحادث، مرة واحدة، في أوراقه المطلسمة، عابراً وغامضاً.

فكّرتُ باحتمال أن يقوم أحدهم بالتنقيب عن أسرار حياتي بعد موتي، مثلما أفعل الآن مع حياة كمال.. ما الذي سيجد؟. وملأني هذا الخاطر بالحيرة، وأشعرني بالدوار.. ما الذي تراكم، في تلك الأقبية الدفينة، وأيّ آثارٍ تركتُها في الممرات المعتمة للنسيان؟ وماذا لو أن يداً مشاكسة امتدت لتقذف بتلك الأشياء إلى العراء، حيث تحدِّق العيون؟.

- ٥ -

اقتحمتُ على سارة غرفتها.. كان ذلك بعد أشهر قليلة من استشهاد كمال.. في البدء نقرتُ الباب بأطراف أصابعي.. خُيل إليَّ أنني سمعت كلمة (تفضّل).. أقالت (تفضّل) حقاً؟، أم أن الكلمة هربت من سراديب لا وعيي.. فتحت الباب ودخلت.. وجدتها أمام لوحة ظننتُ أنها أنجزتها تواً.. كانت تتأملها بعمق، كما بدا لي، أو ربما كان عقلها شارداً يجوب في مكان آخر.. المهم أنني وجدتها واقفة، وقد صالبت يديها على صدرها كما لو أنها في حضرة طقس جليل، خاص بها، ولا ينتمي لأيّما تقليد معروف. ولذا ركّزت انتباهي على طبيعة وقفتها، ولم أعر اللوحة أية أهمية.. وقفتُ إلى جانبها أنظر إليها علّها تسألني عمّا جاء بي إلى غرفتها، غير أنها بقيت على حالها، وكأنني لست موجوداً على بعد قدمين منها.. خدّاها اللذان تعوّدتُ على نضارتهما وامتلائهما الوردي كانا مطفأين... لم أقل شيئاً.. انتظرت حتى تتكلم هي.. تلّبسني عناد لا معنى له في قرارتي.. أن أظل صامتاً حتى تنطق هي.. وفجأة قالت:

"انظر".

الكلمة كانت شبح كلمة.. صوتٌ لم يصدر من لسان وحنجرة بشريين بل خرج مثل رجعٍ بعيد، آتٍ من فضاءٍ متلبّد بأشياء غريبة.

"انظر".

ونظرتُ، فوجدتني أتراجع خطوة إلى الوراء، لأن الخوف والدهشة ألقيا الاضطراب في أواليات الفيزيولوجية.

"ما هذا يا سارة بحق الله؟".

سألت، مع قناعتي أنها لن ترد.

عصافير مقتولة، وقد تناثر ريشها فوق أرض بدتْ على وشك أن تنفجر عن خضرة صارخة، وفي الخلفية أفق عاصف، وطيور مقبلة.. ولكي أتخطى صدمتي إزاء هذا الهول، وهذه المتناقضات، وأنهي لحظات التوتر الذي راح يتصاعد بإلحاح بيننا، قلت:

"سارة.. أنتِ تتطورين.. تقنياتكِ وأسلوب معالجاتكِ لأفكارك وطريقة تلوينكِ.. يحق لنا الآن أن نفخر بكِ".

الابتسامة التي طغت على شفتيها كانت مخنوقة بالحسرة، وتهيأ لي أنها ستجهش بالبكاء بعد ثوانيَ قليلة.. قلت:

"أنتِ مذهلة يا سارة".

وخرجتُ من الغرفة.. ولم أكف، في الأيام التالية، عن التفكير بتلك اللوحة.. بالعصافير المقتولة، والأرض الموعودة بالخضرة، والأفق العاصف، والطيور المقبلة.

* * *

السؤال همّ ضاغط في النفس، ولو كان متاحاً الجهر بأسئلتنا كلها لكان العالم غير هذا العالم.. السؤال يغوي أسئلة أخرى، وإذا ما أدليت بعنقود أسئلتي لسارة، في ظرف كظرفها، أكون قد دفعتها إلى دائرة التعذيب. ولكنني على ثقة من أنها ستأتيني، في يوم ما، في ساعة غير متوقّعة، لتجيب عن أسئلتي المخبوءة، المؤجلة.. أسئلتي العارية التي تتجلى، دوماً، في نظراتي.. في صمتي.. في كلماتي.. في نبرتي وأنا أتلفظ بتلكم الكلمات العارية التي أتبادلها معها، ولا أستطيع الحيلولة دون تسلل أسئلتي معها.

لم تنقطع سارة عن الرسم طوال أيام وأيام.. لوحات كثيرة عرضتها في غرفتها، ونثرت عشرات التخطيطات على سريرها ومنضدتها كما لو أنها تقول لي؛ هذه هي إجاباتي.. نثار معقّد من خطوط وألوان وكائنات.. امرأة وحيدة في صحراء مفتوحة للمطر.. امرأة متشبثة بلوح خشبي في لجّة عاتية.. امرأة تركض حافية على الرمل.. يلوح الرمل حارقاً، وهي، كأنها هاربة من كائن عدائي مجهول.. يطاردها.

رسوماتها حلمية، فيها غموض مثير وصارم، وعلى الرغم من غلبة القتامة إلا أن نقاطاً برّاقة تكابد من أجل الانفلات من الحصار، في القلب، أو في زاوية ما، من هذه الرسومات.

لا أدري ما الذي كان يمكن أن يحدث لسارة لو لم تكن تمتلك ملكَة الرسم؟ فها هي تسكب أساها ومخاوفها وخواطرها الدفينة هناك.. تترجمها إلى رموز ليست مبهمة كلها. ففي لجوئها إلى القماشة البيضاء والورقة البيضاء تنشد الموازنة مع العالم.

فالفضاء الأبيض يمتصّ الفائض من انفعالاتها وهواجسها.. تتيح لها النوم براحة.

قبل أسبوع طرقت باب غرفتها.. لم تجب.. طرقتُ الباب مرّات عديدة ولكن على مهل.. وتوجستُ من أن تكون مريضة، أو ساقطة على الأرض في حالة إغماء... لويت الأكرة فطاوعتني، فألفيتها راقدة على سريرها.. غائصة في نوم بريء عميق، وعلى مقربة منها لوحة على الحمّالة.. ألوانها كانت ما تزال طريّة.. عشٌ فارغ، بيد أنه عامرٌ ومتماسك على غصن يعجُّ بالأوراق. ويتهيأ للناظر إليه أن الطائرين اللذين بنياه سيأتيان حالاً ليحّطا فيه.

يقول عارف :

"سارة أشدّنا حساسية، وصفاء روح.. إنها مثل الماء".

"ما هذا التشبيه.. مثل الماء؟".

"أجل يا محمد.. مثل الماء. فالماء لغزٌ كوني. ويا له من تعريف سخيف ذاك الذي يحدِّد الماء بأنه سائل بلا لون، ولا طعم، ولا رائحة، ويتخذ شكل الإناء الذي يحتويه".

أضحك وأنا أتذكّر مناكدات عارف القديمة مع سارة، وخصامهما الطفولي اليومي الذي كان يجعل أمي تصيح غاضبة، ويجعل أبي مضطراً أحياناً إلى ضربهما..

يصول الصمت.. تتعقّبه اهتزازات الرقاص وتكتكة الساعة القديمة.. تكتكة رتيبة، نظيمة، مستمرة أبداً، تذكّرني بسيزيف المتورط بالصخرة والقدر العابث.

وفي غفلة منّي تحتوي الظلمة الغرفة وأشياءها.. أحاول الوقوف.. أُفاجأ بقدميّ وقد تنمّلتا.. أتحامل عليهما، وأقترب من مفتاح النور.. يتحشرج النيون ثم يضيء ليؤكد الحضور العارم لمحتويات صندوق كمال على السريرين (سريري وسريره). وعلى المنضدة الدائرية الزرقاء التي كان يكتب عليها.. أعيد المحتويات إلى الصندوق وأغلقه.. أترك الغرفة إلى باحة الدار. أمي تغزل الصوف. وأبي يغسل دراجته الهوائية. وسارة في المطبخ.. أدخل المطبخ.

"ماذا سنتعشى اليوم؟".

"كبة برغل".

تقولها باسمة، فأقول:

"أيُّ ترف في زمن الحصار؟".

"هو زمن شاذ سينقضي حتماً".

"كُبتِّك بلا لحم حتماً".

"بالحمّص يا عزيزي، ولكن مع قليل من اللحم أيضاً".

وأضحك.. أضحك، ثم أقول:

"أرسمتِ شيئاً خلال هذه الأيام؟".

"لا.. أحسّ أنني استنزفت نفسي كفاية، وعليّ أن أجدد طاقتي".

"حسناً تفعلين".

سارة فاكهة الأيام السعيدة، المغرمة بالتنويع اللوني والموسيقى الهادئة.. بالتمر الهندي والكاكاو والنكات البريئة.. تاريخها، تاريخُ فتاة تغمس إبهامها في كيس تمر الهند وتلحسها عبر سنواتها المجنحة التي مضت بوداعة مذ كانت تخطو متعثرة على البلاطات القرميدية في الباحة قبل أن تُصّب بالكونكريت، مع إبقاء تلك الدائرة في الوسط ترابية، حيث تشمخ نخلة الخستاوي، وتنفش شجرة التين فروعها.. شغفت أمي بسارة لأنها الابنة الوحيدة.. الشمعة الوحيدة التي هي من نوع آخر، كما تقول:

"وكلّكم شموع أيضاً".

وكان غيابها في بغداد خلال سنوات الدراسة الجامعية يترك أثراً مؤسياً.. فراغاً، كأن البيت ليس هو البيت. وعصر كل يوم خميس إذ كانت تجيء، كان النسغ العتيق الحيوي يتواصل صُعداً في كيان العائلة من جديد.

شهقاتها كانت وجيعة، وهي ترى الدم يتدفق من خنصرها.. في الثانية عشرة من عمرها كانت.. ضئيلة وجدائلها السود

تتدلى على ظهرها النحيل.. كان الدم يتدفق، وعارف منكمش من الذعر، وبيده السكّينة.. اندفعتُ نحوه لأضربه، فقال:

"لم أقصد".

وسارة صاحت من خلل البكاء، ومنظر الدم الذي أحال ثوبها الأبيض إلى لوحة غير معقولة.

"لا.. لا تضربه".

أقبلت أمي وأطلقت صياحاً عالياً لتتصاعد شهقات سارة الوجيعة، والدم ما يزال يتدفق. فيما وقف كمال قريباً منها، يكاد يمسك بها، لكنه بدا مصعوقاً، مرتعباً وعاجزاً وأسنانه تصطك، ينظر إليها، ولا ينطق بحرف.

بقع حمراء تلطخ الثوب الأبيض، وكذلك القماشة البيضاء.. الأحمر المتوهج، المضطرب.. العصافير المذبوحة، والشهقات الآخذة بالتحوّل إلى نشيج مرّ، وصياح أمي وهي ترى شمعتها التي هي من نوع آخر تنزف بدل الضياء دماً، وخوفاً، ودمعاً مالحاً يختلط بمخاطها حيث يلتقيه عند طرف فمها....

صوت سارة الفاجع بعد أن أصرّت أمي على فتح صندوق النعش.

"يجب أن أراه.. سأقلب الدنيا على رؤوسكم".

ورضخنا بعد كثير من التوسلات والبكاء والصراخ.

فغرت أمي فاها وهي تحدِّجه، وانطلق صوت حارق يعصر الروح، لا منها، بل من سارة الواقفة خلفها، وهي ترى الدم يضرج ملابس الميدان.

وقعت سارة فاقدة الوعي.. أخرجتها النسوة الضاجّات بالعويل والأحزان القديمة، وأمي ركعت.. انحنت عليه ولثمت جبينه، وبقي صدى صوت سارة يتردد داخل رأسي طوال أيام مجلس الفاتحة. وبعدها كان يعاود بين الفينة والأخرى، وفي غفلة منّي، اقتحام المخابئ السحيقة في أعماق نفسي.

دخل حسن البيت.. سألته سارة:

"ها... بَشِّرْ".

"انتهينا من شتل الطماطم".

"ووحش الطاوة؟!".

"أووه.. اصبري.. سآتيك منه بحمولة حمارين كل يوم".

وانفجرنا ضاحكين، فقال حسن:

"آه، نسيت.. نبيل ينتظرك عند الباب".

"لمَ لا يدخل؟".

"لم يرض.. قال إنه يريدك".

خرجت، وكان نبيل واقفاً تحت عمود النور.

"تعال يا نبيل.. ادخل".

"تعال أنت".

"ماذا وراءك؟".

"دعنا نتمشى قليلاً".

"لم أتعش بعد.. لندخل ونتعشى معاً".

"أشكرك.. هناك ما هو أهم".

"ماذا؟!".

وحين بدأنا نمشي استلَّ من جيبه حزمة أوراق وأعطاها لي.

"ما هذه؟".

"ترددت طويلاً قبل أن أسلِّمها لك.. إنها من أوراق كمال.. أعطاها لي قبل سنة من استشهاده، وقال دعها معك.

بيدٍ، ارتعشت قليلاً، تناولت من نبيل الأوراق.

"قلتُ إنك أولى بها ما دمت بصدد كتابة روايته".

في غرفتي، وتحت ضوء (اللالة)، بعد أن انقطع التيار الكهربائي جلست لأقرأ أوراق كمال هذه، وأنا اسأل نفسي ؛ لماذا لم يضعها في صندوقه مع باقي أوراقه وأشيائه، وفضّل أن يتركها أمانةً عند نبيل؟.

كلما سعيتُ إلى لملمةِ ما يلوح متشظّياً باغتني كمال من حيث لا أتوقع ليطيح بالبناء كله مشكّلاً أبعاداً وزوايا وخطوطاً جديدة، ومقترحاً تناغماً آخر، وتعاملاً مبتكراً مع عناصر روايته زماناً ومكاناً وفضاءً وتفاصيلَ حياة.. وها هو يكسر شرنقة الكتمان المتقرِّنة، ويبوح بما ظننتُ أنه حريص على مواراته وإخفائه. أم تراني أسوِّغ الأمر لنفسي وأعلن، من دون وجه حق، للآخرين ما أراد هو أن يظل سرّاً خفياً؟.

أسألُ : لِمَ إذاً كتب هذه الأوراق وأمّنها عند نبيل؟. أتراه توقّع ما يحدث لي الآن؟. أتخيّل أنني سأبقى أبحثُ بحيرة وقلق عمّا يصل المتنافرات والمتناقضات بعضها ببعض، لأفكّ الاشتباك بين أشيائه التي تداخلت، بالرغم منّي، بتعقيد شديد؟. أكان إخفاؤه لمفتاحه في أعلى النخلة، وزجّه بتلك الأوراق في صندوقه، وإيداعه عند نبيل أوراقاً أخرى، وفكرته التي طرحها عليّ حول كتابة روايته.. أقول: أكان ذلك كله مناورة محسوبة رسم اتجاهاتها بذكاء حاد، جاعلاً مني الأداة التي ستتخذ آلياً تلك الاتجاهات، وتحقق له ما حالت الحرب دون أن يحققه بنفسه؟.

ألم يقل إن واحداً منّا (أنا أو هو) لا بدَّ من أن يعود؟. ما الذي كان يرغب أن يقوله عبر روايته؟. هل ما أقوله أنا في ما أسمّيه (رواية كمال) هو الشيء ذاته الذي كان سيقوله هو لو بقي حيّاً يُرزق حتى الآن، وشرع بكتابة روايته؟. أكان واثقاً من قدرتي على إنجاز ما كان يحلم بإنجازه، بالطريقة التي أشاء، وباللغة التي هي لغتي؟ أم عليَّ أن أدخل كتاباته - كما هي - وثائقَ لا تُمس في نسيج هذه الرواية؟.

وهذه... أهي الرواية التي أريد، أو أراد هو كتابتها، أم موادها وعناصرها ومفرداتها الأولية التي منها وعليها ستُقام فيما بعد بنية الرواية؟. وإذا كانت هذه مجرد مواد وعناصر ومفردات فمن سيعيد كتابة الرواية فيما بعد؟ أنا؟. أم أنتَ أيها القارئ الصديق، أنتِ أيتها القارئة الصديقة؟.

ها هي الأوراق التي انتزعها نبيل من جعبته السرّية وأعطاها لي لأنها، ربما، كانت تثقل عليه، وتقضُّ مضجعه، أضعها بين يديك، معتقداً أنني بهذا أخلص لكمال، طالما؛ ابتغى هو أن يخلّف روايته مكتوبةً، لأنه كان مؤمناً بأن الرواية تساوي الحياة.

أوراق العشق..
أوراق التيه

- ١ -

جعلتِ الخطوط تستدير.. بتلقائية تستدير.. تنساب بيسر.. خطوط حميمية، تتلوّن.. الألوان يؤكدُ بعضها بعضاً، وتنبضُ في مجال حرٍّ مريح.. ألوان وخطوط في تكوين فذ؛ دافئ وأنثوي. وفي الأعلى.. في الزاوية اليمنى ثمة دائرة.. بدرٌ حليبي ينزلق نحو القلب من العالم القائم على القماشة. وفيه تعرّجات باللون الأزرق، إنْ قرّبت النظر منها اكتشفت أنها حروف متراكبة. وإنْ حاولت قراءتها احتجت إلى فسحة من الوقت، وتركيز للذهن قبل أن تقع على هاتين الكلمتين (موسيقى الحياة).

وقفتُ أمام (موسيقى الحياة) في الباحة، تحت شجرة التين، وتمنيت لو جاء محمد في إجازة اليوم أو غداً قبل أن أغادر إلى الجبهة. وتذكّرت الأفق الكالح، والامتدادات الحجرية، ومعزوفات المدافع. وتكرّست فيَّ قناعاتي القديمة في أن لسارة شيئاً ما، جدّ جوهري، وآسراً وفريداً، وغير قابل للعطب، ينتشلك على حين غرّة من دنيا ويلقيك في أخرى نقيضة، سامية وإنسانية.

قالت سارة :

"أريد أن أصعد الشجرة".

"تعالي".

"أخاف".

"اصعدي وأنا وراءكِ.. إن وقعتِ أمسكتُ بكِ".

"وإن وقعنا نحن الاثنين".

"سنقع في الجدول ولن يصيبنا شيء".

كانت شجرة توت شامخة.. تسلّقتها سارة غصناً إثر غصن وأنا على أعقابها، وعلى فرع سامق، في القمة جلستْ، والوجل يبرق في عينيها الصافيتين... وابتسمت، ثم نظرت خلفها. رأت أشجار التين المثقلة بالثمر في البستان، وراء السياج الطيني المتوّج بالأسلاك الشائكة، وصاحت بحسرة:

"تين .. انظر".

كان التين القشدي الناضج المستدير يتدلى بغزارة بين الأوراق الخضر التي تشبه أصابع مفلطحة كبيرة.

"اشتهيت التين".

"إنه خلف السياج".

"لماذا لا نزرع شجرة تين في البيت؟".

"سأطلب ذلك من عمي".

وبعد ستة عشر عاماً مذ غرسنا قلم التين في وسط الباحة قرب نخلة الخستاوي، وفي وادٍ واسع يعجّ بالأشجار، بعضها أشجار تين كنتُ مع فوجي، ونحن مشتبكون ضد قوة معادية.. كان التين فجّاً لا يزال.. أكلت واحدة في فاصلة التقاط الأنفاس

وشعرتُ بعطشٍ محرق، وفطنتُ إلى أنني لم أشرب ماءً منذ ساعات طويلة، عصيبة.. والرصاص يصفر ويئز كرعتُ جرعة ماء من زمزميتي- كان ساخناً، والطقس كان كذلك.

انتشرنا بين الأشجار، وكان العدو قد احتل مواضعنا الأمامية وتوغّل في الوادي، ولم يتزحزح على الرغم من القصف المدفعي الشديد، والضربات المتتالية لطائراتنا.

حين جنّ الليل انسللنا بحذر في الظلام الشجري، وكنتُ أستند إلى شجرة، لم أعرف نوعها، حين خرقتها رصاصة فوق رأسي تماماً.. انبطحتُ وأطلقتُ النار.. كان العطش يمزِّق بلعومي، وجاءت الأوامر بحفر المواضع والتخندق، في المكان الذي نحن فيه، وحتى إشعار آخر.

كان التراب رخواً لحسن الحظ، واستفدنا من الجداول المحفورة أصلاً بين الأشجار، وغالبني النعاس، وكدتُ أنام.. قال رفيقي الذي كان ملتحقاً لتوّه بالفوج:

"نم. وعندما أنعس أنا أوقظك".

"هذا ضد الأوامر".

"ولكنك نعسان".

وأظن أنني نمتُ قليلاً.. كنتُ في حالة بين اليقظة والنوم.. أو عند المصيدة القلقة للحافّة المفارقة لليقظة.. رأيت سارة.. كانت صغيرة وبيدها تينة ناضجة تقطر عسلاً.. تينة قشدية كتلك التي

شاهدَتها، وهي فوق شجرة التوت، في البستان خلف السياج.. قالت: "إنها خائفة".

"وما الذي جاء بكِ إلى هنا؟ كيف وصلتِ إلى هذا المكان؟".

وزعقت قنبلة.. صحتُ:

"سارة، تعالي ادخلي الموضع".

قال رفيقي باندهاش :

"مَنْ هي سارة؟".

"سارة؟".

"أجل.. صحت؛ سارة تعالي ادخلي الموضع.. هل كنت تحلم؟".

"لا أدري.. ربما كنت أحلم".

وانفجرت قنبلة ثانية، واشتدّ القصف.

"العدو سيشنّ هجوماً.. اصمدوا مهما كلّف الأمر".

قلت لرفيقي:

"منذ متى وأنت في الجبهة؟".

"منذ يومين.. هذه معركتي الأولى".

"هل أنت خائف؟".

"لا أعرف.. أفكر بأهلي".

"كم عمرك؟".

"تسعة عشر عاماً".

"واسمك؟".

"قحطان".

"ذات مرة تشاجرت مع شخص اسمه قحطان وأوقفونا معاً في مركز الشرطة.. أنا كمال".

ضحكنا معاً.. قال:

"لا أراك من النوع الذي يتشاجر.. أتمزح؟"

ودوت صرخة.

"اطلقوا النار".

وفي لحظة خاطفة، تحت مشاعل التنوير، ميّزناهم بين الأشجار.. تمزّق نسيج الليل، واضطربت الحواس.. كابدتْ في سبيل توافق مستحيل، وصحتْ حواس أخرى، كانت كما لو أنها ضُمرت منذ عهد سحيق.. طارت الأشكال النارية، وارتفعت حمى البارود، وأعول حيوان مذعور في مكان ما.

قال قحطان إنه عطشان، وجلس في الموضع الشقّي ليبلل ريقه.. كنتُ أرمي بلا انقطاع، وعتادي كان على وشك النفاد.. سأل قحطان والرصاص يئز حولنا:

"هل سيستمر هجومهم طويلاً؟".

"وما أدراني؟".

"ألست قديماً في الجيش؟".

"نعم، من عهد نوح.. ارمِ.. لا تشغلنا".

ومع الفجر كان كل شيء هادئاً.. وزّعوا علينا العتاد، وصدرت الأوامر بالاندفاع في عمق الغابة.. تركنا مواضعنا الشقيّة، وزحفنا محتمين قدر المستطاع بالأشجار.. كان قحطان يتلوى على الأرض برشاقة، وفي موازاتي تماماً، وكنت أتحامل على نفسي للحاق به.. قال إنه يحمل حجاباً عمله ولي صالح مات قبل خمسين عاماً. وكانت أمه تحتفظ به، فأعطته إياه. ولهذا فهو متأكد من أنه لن يموت في الحرب.. قدْ يُجرح ولكنه لن يموت.. قال إن قلبه يطمئنه.. قلت:

"الأفضل أن نتحدث عن هذه الأشياء عندما نعود".

كان يستغل أدنى فرصة للكلام ويتكلم، أما الآن فإنه سكت.. ابتسم وسكت.. وعرفنا أن العدو ترك الغابة، وأنه يتربص بنا في سلسلة التلال الأخيرة، حيث مواضعنا التي أُحتلّتْ.

أقبلت طائراتنا، وتصاعدت الأدخنة فتنفسنا بارتياح.. قال قحطان:

"الطائرات مخيفة".

"إنها طائراتنا".

"أعرف، ومع ذلك هي مخيفة".

وانتظرنا في نهايات الغابة، وعثرنا على بعض ثمار الكرز والتين الناضجة، وكان الماء أقل سخونة في هذه الساعة المبكرة من النهار.. جلسنا نقضم الصمون بتلذذ، ونلوك الفاكهة الطريّة.. قال قحطان:

"الصمون العسكري لذيذ".

"حين تجوع، كل ما تأكله تحسّه لذيذاً".

وفجأة، انكمشت ملامحه.

"أخ خ خ خ".

"ماذا؟!".

وتدفق الدم من كتفه.. صرخت:

"هناك قناص معادٍ.. انتبهوا".

واختبأنا.. قال عريف الفصيل:

"سنعالج الأمر حالاً".

وكنتُ في انتظار رجال المفرزة الطبيّة لمّا قال قحطان، وهو يعصر ألمه:

"لا تخف عليّ.. قلبي يحدِّثني أنني سألتقيك مرة أخرى".

"إن شاء الله".

نظر إلى قميصه المنقوع بالدم، وقال:

"فقط، أحسّ أن يدي مخدرة".

وكنت أضغط على موضع الجرح بلفّاف الميدان دون فائدة، فقد كان ينزف، حتى حضر جنديان من المفرزة الطبيّة وسحباه بعد أن أخرج من جيبه قطعة جلدية قديمة متشققة ومخاطة على شكل محفظة صغيرة، وناولني إياها:

"خذ، هذه أمانة.. عندما نلتقي ثانية سآخذها منك".

"ما هذا؟"

"الحجاب".

كانت مدافعنا تدكُّ مواقع العدو، ومدافعهم تنفلق بين مواضعنا.. واختفى قحطان بين الأشجار محمولاً على محفّة، وبقع الضوء المتسللة خلل الأغصان تتلاعب على قميصه المضرّج بالدم.

انتابني شعور بالأسى، وددت لو أغمض عيني بسلام وأنام، غير أن العدو كان هناك. واشتهيت سيجارة أمجّها، وانفث دخانها نكاية بالحرب، على الرغم من أنني لا أدخن كثيراً. واستعدت صورة سارة وهي صغيرة، وبيدها التينة الناضجة، وأنا أنهرها لأنها جاءت إلى هنا.

قال نبيل:

"سارة، في صغرها كانت جميلة، لكنها فقدت رونقها لمّا كبرت".

"لا .. سارة تزداد حلاوة يوماً بعد آخر".

"في عينيك أنت.. أستطيع أن أعدّ لك أسماء مئة فتاة أجمل منها في هذه البلدة الصغيرة وحدها".

"يكفي أنني أراها جميلة".

سارة التي تحيل الألوان إلى موسيقى لم تفهمني.. لم تفهمني البتة.. وربما، أنا الذي لم أفهمها. وبعد شهرين حين التقيت بقحطان ثانية، سألني عن سارة:

"أتحبها؟".

ضحكتُ، وأدرك أن سبب ضحكي هو أنني أحبها.

"وهي؟".

"ما لها هي؟".

وكان قحطان ذكياً، ولم يتماد في طرح الأسئلة، وحيّرني تجنّبه الخوض مرة أخرى في موضوع (سارة).. هل فهم قحطان أن سارة امرأة ما، أحبّها أنا من طرف واحد.. وكدتُ أخبره أن المسألة أعقد ممّا يتصور.

قلت لنبيل في ساعة مكاشفة يائسة:

"سارة تجعلني أشعر أنني غريب في البيت".

"قل أي شيء إلا هذا.. يا أخي.. أنت تتوهم أشياء".

"صدّقني يا نبيل.. أنا الآن مثل طائر الكركي، حلَّ موسم هجرته ولم يرحل فبقي وحيداً ، غريباً".

"كمال أنت ترعبني.. إنهم أهلك ويحبونك، ولا يحق لك أن تقول مثل هذا الكلام".

"منْ يحبني؟".

"كلهم.. حتى سارة.. صدّقني".

"أنت تهذي".

وفي يوم، فكّرتُ بطريقة أغادر بها البيت، ولا أعود.. وبدأتُ محاولتي بجسِّ نبض محمد.. قلت له إنّ لي صديقاً في البصرة سأبقى عنده وأعمل هناك خلال إجازاتي. فقال:

"لو سمع عمّك فماذا سيقول؟. هل تتصوّر؟".

وسمع عمّي فقال:

"ذات مرة ضربتك حين ذهبت إلى النهر ليلاً.. أتذكر.. كنتَ صغيراً، وندمتُ لأني ضربتك. ولكني اليوم سأكسر عصا خيزران على رأسك، ولن أندم، إن عاودت التفكير بهذا". ولان سارة قالت: "اعرف حدودك". ضيّعتُ حدودي، ووجدتني في المتاهة.

في الجبهة وأنا أقاتل كنت أعي ماذا يحصل، أما في البيت فلا.. وقلت لزوجة عمّي التي قالت عيب، هي ابنة عمك: "إجازتي انتهت.. أعطوني خمسة أيام، لا سبعة".

لكنها سكبتِ الماء خلفي كعادتها، وأنا ماضٍ بحقيبتي والهموم. ولأشهر طويلة، لم تلتق عينيّ بعينيّ سارة، ولم أتبادل معها كلمة واحدة، حتى إذا انهمر الرذاذ الملوّن وغمرني، تناهى إليّ صوتها من الفردوس.

"هل أعجبتك؟".

التفتُ إليها.. كانت مشرقة.. قلت بهدوء متجاوزاً في لحظة، الضباب الكثيف الذي انتصب حاجزاً بيني وبينها مذْ قالت؛ اعرف حدودك.

"لا أستطيع إلا أن أفخر لأن لي ابنة عمٍ مثلكِ".

"أشكرك".

مشت نحو غرفتها، واللوحة موضوعة على حمالتها تحت شجرة التين، وثمرة تين ريانة تتدلى من غصن منحنٍ يكاد يلامس الألوان. وفطنت إلى أن موقع الشمس إزاء اللوحة تغيّر.

كنتُ أحس أن الذي تهشم من المُحال أن يعود ويلتئم، وإن الشظايا جارحة ما تزال.. وعادت سارة بعد أن بدلّت ملابسها وارتدت ثوباً أبيض بنقاط زرق فاتحة.

"إذا تعجبك خذها".

"ولكنكِ تتهيئين لمعرضك الأول".

"لا بأس.. خذها بعد انتهاء المعرض".

"لا....".

قلتها وخرجت.

- ٢ -

أينعتْ في غفلةٍ من النواميس، وكنتُ قد حدست أنه لن يكون لي معها خيط ألفة أبداً مذْ دخلتِ القاعة متأخرة نصف ساعة عن موعد الدوام الصباحي، في أول يوم لنا في الجامعة، تواكبها عاصفة من العطور والألوان. ولكن لمّا أزاحت بأناملها الطويلة البيضاء، وهي تحرِّكها بانسجام مع كلماتها ذات اللطافة المتكلِّفة أدركتُ أنني كنت مخطئاً في حدسي ذاك، فقد أخبرتني أنها لم تفهم شيئاً من حلّي للسؤال الرياضي على اللوحة. وأنها وجدت نفسها أمام طلّسم صعب. وطوال ساعة شرحت لها معنى ذلك التشابك المعقّد للرموز والأرقام، ونحن جالسان في نادي الجامعة. وبعد أسبوع قالت إنها تريد أن تفهم مادة الرياضيات كلها، وطلبت مني أن أرافقها إلى البيت .

"نتغدى، ومن ثم نتذاكر".

"أليس من الأفضل أن نتغدى ونتذاكر في النادي".

"لا، طبعاً.. الطعام في البيت أفضل، والجو أهدأ وملائم أكثر للمذاكرة".

وترددت.. حاولت التملص من دون جدوى.. قالت:

"ستأتي يعني ستأتي.. بابا وماما ينتظران.. حدّثتهما عنك".

أخرجت سيارتها الـ (مرسيدس الخضراء) من المرآب، وفتحت الباب وهي تخترقني بعينيها اللتين هما بلون العسل الأسود، وتومئ بأنملتها الغضّة:

"اصعد".

وفي البيت كنتُ مضطرباً..

"لم يكن ذاك بيتاً.. كان شيئاً آخر أطلق عليه أي اسم تشاء ولكن لا تسمّه بيتاً كي لا تتلبّس عليّ الكلمة".. قلت هذا لنبيل، يومَ حكيت له عن مها.

كانت المائدة باذخة، تحوي أصنافاً مربكة من الطعام والشراب، وتبعث روائح مقلقة، شهيّة. وأكلت.. أكلت قليلاً، وهي قبالتي، تشلّني ابتسامتها الطافية على وجهها، وتغمز لي.. كانت تمضغ طعامها بفم مسدود.. حنكها وحده الذي كان يتحرك، وبتأنٍ متقن، أغرمتُ غبَّ عدة لقاءات أخرى بتقبيله، في كل مرة، قبلات ناعمة، متتالية قبل التقامي الشفتين الطريتين.

مها امرأة وارفة، بطلعة مغرورة، ونهدين نافرين يوحيان بالاستعلاء.. في لحظة الضيق أو الغضب تفقد كثيراً من رونقها حتى لتبدو وكأنها واحدة أخرى.. البشرة الصقيلة كالكريستال تترهل، ويبرز الأنف ناتئاً، غريباً كأنه ألصق عنوة هناك.. وتجتاح العينين غيوم.

"خذوا راحتكم".

قالت أمها عقب تناول الشاي، ونحن في الصالة.. همست:

"هاتِ الكتاب والكراسات".

"ليس هنا.. قم".

طاوعتها وأنا محرج، وكدتُ ألتفت إلى والديها، وأنا أتبعها على السلّم. وفي الغرفة التي أغلقت بابها أطلقتْ، من آلة التسجيل، أغنية انجليزية هادئة، واضحة الكلمات. سأعرف فيما بعد أنها لفرانك سيناترا.

"اجلس هنا".

جلستُ إلى الطاولة الأنيقة، وجلست إلى جانبي.

"نبدأ الدرس".

"أنت خجول.. لماذا؟".

"لا أدري.. طبيعة".

قضيت ساعتين وأنا أُسوِّد الأوراق بأمثلة وتمارين شتى.. هل كانت تفهم شيئاً؟. هي قالت نعم. وأنا لم أكن ألح، وعندما خرجنا كانت خصلات الشمس تضمحل رويداً رويداً. ويزحف على الانحاء ظلامٌ شفيف. وأوصلتني بسيارتها إلى القسم الداخلي.. نزلتُ في شارع آخر قريب غير الشارع الذي يقع فيه القسم خشية أن يرانا أحد من زملائنا في الجامعة.

وبعد أسبوع أخذتني ثانية إلى البيت. وصارت الأسابيع تترى وأنا أقوم بزياراتي المنتظمة ظهيرة كل يوم اثنين إلى ذلك الحي المترف. وفي كل مرة كانت أصابعنا تتلامس خلسة ويتولد ذلك الارتجاج الذي يصل أعماق الروح.

كنتُ أسحب يدي.. كانت تضحك وتزيح الأوراق إلى أقصى زاوية على الطاولة لتتحدث.. لتتحدث عن فراغ حياتها.. عن فقدان الوفاء وقيم الصداقة في هذا الزمان.. عن آلام الصداع التي تحسّها في بعض الليالي، والسأم القاتل الذي يخنقها.

"أنا تعيسة.. ألستُ تعيسة؟".

ضحكتُ وقلت:

"تعيسة؟!".

"وماذا تظن؟.. أنت لا تعرف شيئاً عني".

فتحتُ فمي لأتكلم إلا أنني آثرت السكوت.. قالت:

"كم كنتُ أتمنى لو كان أخي عصام هنا، أو كنتُ أنا معه".

"وأين هو أخوكِ؟".

"في زيورخ، يعمل جرّاحاً هناك، في مستشفى شهير".

"آه..".

"هاتفنا، وطلب مني القدوم إلى هناك لإكمال دراستي، ولكن ماما وبابا..".

قامت إلى رفّ الأشرطة، واختارت شريطاً محدّداً دستّه في موضعه بآلة التسجيل فتصاعد لحنٌ عنيف.

"أتجيد الرقص؟".

"ماذا؟ أنا أرقص؟!".

"حرام.. ما معنى أن تحيا، ولا ترقص؟".

باعدت ما بين ساقيها الممتلئتين، المحشورتين في بنطال جينز ضيق، وفتحت ذراعيها.. انطلق جسدها الباسق حرّاً في فضاء الغرفة، وكسا وجهها شيء ما، وحشي. وتلاعبت خصلات شعرها الملفوفة بتوافق مع اهتزازاتها الصارخة بالرغبة. ثم جعل طولها يتماوج ابتداءً من الرأس، ومروراً بالصدر والبطن والردفين حتى الساقين كأنها أفعى نشوانة تتلوى واقفة.

دنت مني وعلى ملامحها تعبير حاد مشاكس من غير أن تكفّ عن الرقص. وخطفتني بغتة، ساحبة إياي من يدي فألفيت نفسي بين ذراعيها. ودونما تمهيد احتويتها والتهمت شفتيها، فاستكانت.. في غمرة الموسيقى العاصفة اكتشفت طعم الشفاه للمرة الأولى.

جلسنا أخيراً، وكان قلبي يخفق بشدّة.. قالت وهي تناولني منديلاً ورقياً:

"مكروه.. امسح فمك، كأنك مهرِّج".

المنديل الورقي تلطّخ بالأحمر عندما مسحت به فمي.

أصبت بعدوى الإحساس الموجع ببطء دوران الزمن.. صرتُ أتابع التسكع الدائري الرتيب لعقارب الساعة يوماً بعد يوم، حتى ما بعد ظهيرة يوم الاثنين.

كنا نلتقي كل يوم من أيام الدوام في الجامعة فأمضي معها الوقت كله.. في القاعة هي إلى جانبي، وفي الممرات والنادي ترانا معاً دائماً. بيد أن هاجس انتظار (الاثنين) ظلّ يسكنني.

ولم أنس.. باتت سارة وخزاً أبدياً في الأعماق.

زارني نبيل في الجامعة وتعرّف على مها.. قال لي بعد أن ودّعتنا وغادرت إلى بيتها:

"لماذا لا تتزوجها؟".

"وسارة؟".

"أيُّ وهم؟".

"سارة ليست وهماً.. إنها أكثر حقيقية من أي شيء آخر في هذا العالم".

"ستبقى تدور في هذه الدوّامة بلا جدوى".

"هي دوّامة حقاً، ولكن لا خلاص لي منها".

"أنت يا كمال صنعت فخاً وأوقعت نفسك فيه.. قيّدت نفسك وأعميتها.. يا أخي انظر جيداً.. أين سارة من هذه النستلة؟".

"أيّ نستلة يا نبيل؟. مشكلتك أنك لا ترى إلا القشور".

"ما لها القشور؟ ها؟ وثمّ ماذا عند سارة في ما وراء القشور؟".

"في سارة شيء لا تملكه أية امرأة على الأرض".

"هذا الشيء هو من بنات مخيّلتك المحمومة أنت".

"ليكن.. فأنا أراه حقيقياً ومؤكداً".

وسارة في برجها المستحيل الذي يمنعني عنه ألف سور ومليون مصدّ.. فهي عصيّة ومتمنِّعة لأنها قريبة جداً.. قريبة أكثر ممّا ينبغي. وتلك هي المفارقة الساخرة التي لا حلّ لها. أما مها فهي بعيدة.. بعيدة جداً.. بعيدة أكثر ممّا ينبغي، وأكثر ممّا تتصوّر هي.. قالت لي يوماً:

"إنْ فكّرتُ بالزواج فلن أتزوّج غيرك".

"ولكنكِ من عالم غير عالمي".

وسردت لها ما توقعته ضرورياً لتعرفه عنّي.. قالت:

"لا أحب الكلام عمّا يُحزن".

خرستُ فحاصرتني بموسيقاها المجنونة وجعلت ترقص.. كانت ترقص حين دوت صفّارة الإنذار.. جمدتْ من رعب فأوقفتُ الموسيقى. وفي لحظة ارتجَّ البيت كله، والطائرات تهدر والإطلاقات تتناثر، وعلا صوت انفجار.. تهشّم زجاج نافذة، وسقطت مزهرية في زاوية من الغرفة وتكسّرت فتناثرت أزهارها الاصطناعية، حتى إذا شمل الهدوء كل شيء وأعلنت صفارة الإنذار نهاية الغارة فُتح الباب. وهرع أبوها وأمها إليها وكانت بين ذراعيّ، فاقدة الوعي، أو تكاد. ونقلت نشرة الأخبار أن طائرة معادية سقطت على مشارف بغداد.

كانت الحرب في أشهرها الأولى، وكانت قد مرّت ثلاث سنين مذ تعارفنا بتلك الحميمية.. قلت:

"أنتِ عالم وأنا عالم ثانٍ".

قالت:

"سأفعل المستحيل من أجل أن تكون لي".

قلت:

"وإن رفضت".

قالت:

"حين أريد شيئاً لا بد من أن أحصل عليه مهما كان الثمن. وعندما أملُّ من شيء أرميه مثل نعلٍ عتيق".

قلت:

"أنتِ مغرورة".

قالت:

"لأكن ما أكون.. مغرورة أو لا، ولكني أحبّك إلى الحدّ الذي سأسبِّب لك مشكلة كبيرة إن لم تفعل ما أريد.. أنت الشيء الوحيد الذي لن أملّه أبداً".

ويوماً ما، وامتحانات السنّة الدراسية الأخيرة تقترب، قالت:

"سأقول لك شيئاً بلا مقدِّمات، من أجلك ومن أجلي".

"ماذا يا مها؟".

"ألم تقل إنك من عالم وأنا من عالم... حرّرتك".

"ما هذا الذي تقولين؟".

"كمال.. الظروف أقوى منّا.. بابا وماما قالا إن الحرب طالت، وبقائي والغارات الجوية محتملة في أية ساعة خطرٌ عليّ.. ابن خالي علاء في برلين الغربية يدرس هناك.. أرسل خبراً.. قال إنه حجز لي مقعداً في إحدى الكلّيات.. سأدرس الهندسة، وربما تزوّجنا.. أنت وسيم وممتاز وذكي وستجد طريقك، والمرأة الجديرة بك".

"منذ متى وأنتِ تخطِّطين لهذا؟".

"منذ شهرين، أو ثلاثة".

"كنتِ تلعبين إذاً؟".

"كلانا كان يلعب".

"أنتِ ماكرة".

"لا.. أنا واقعية".

"أنتِ منافقة".

"أرجوك يا كمال.. لا تتجاوز".

"أنتِ أنانية، وكذّابة يا مها.. وحقيرة".

كنتُ أفقد أعصابي وأنا أهذر بهذه الكلمات القاسية التي راحت تتلاحق كما لو أنها كانت هاجعة في دخيلتي منذ عهد بعيد.

كزّت على أسنانها وهي تقول:

"وأنت أحمق وقصير النظر وبليد".

صفعتها.. شعرت بغصّة كادت تكمّ أنفاسي فصفعتها.. الرنين الذي انبعث على أثر تلك الصفعة لم يفطن له أحد من الطلبة الذين كانوا قليلين في هذه الساعة المتأخرة من الدوام. كنّا في الحديقة الجانبية للجامعة المستنصرية. واحمرَّ وجهها وفغرت

فاها غير مصدِّقة، وانخرطت في بكاء معذّب. وشعرت بالحزن والفقدان وأنا أراها تبتعد بخطى سريعة.

وما زلت أعجب، كيف انتهى كل شيء، هكذا، بلمح البصر.

في اليوم التالي اقتربتُ منها واعتذرت، متوقِّعاً أن تردّني بغلظة، بيد أنها ابتسمت، ثم راحت تضحك، وقالت:

"أنت شجاع، وصدّقني أنك لم تخسر".

قلت:

"أعرف أنني لم أخسر".

بعد مرور أكثر من سنة على وداعها لي تذكّرت مها.. تذكّرت قولي لها:

"قد لا يرى أحدنا الآخر، مرة أخرى، أبداً".

تذكّرتها في ملجأ شقي مع رفيق لي، في قاطع (مجنون)، وسربٌ من طائرات العدو يناور فوقنا ويلقي بأحماله المميتة بينما مقاوماتنا تُحيل السماء إلى خطوط من نار.... هناك، تذكّرت مها وابتسمت.

قال رفيقي:

"أهناك مَن يبتسم في ساعة كهذه؟".

قلت له:

"تذكّرتُ مها".

"مها..؟".

وضحكت.. في كرنفال من الأصوات الجبّارة العاتية، وشيء ما يضيء في السماء، صاروخ ينتحر أو طائرة تنفجر، ضحكت.

وبعد سنة أخرى استلمت رسالتها الأولى وأنا مندهش لأنها تذكّرت عنواني، ولأنها تذكّرتني.

- ٣ -

فتنتها الفراشات فرسمتها بالقلم الرصاص.

"انظر.. لو كانت معي فلوس لاشتريت علبة أقلام ملوّنة".

وأهديتها أول علبة أقلام ملوّنة فشهقت سروراً. وفي اليوم التالي قدّمت لي ورقة مخطّطة، منتزعة من كراسة مدرسية، وعليها صورة فراشة ملوّنة، جناحاها يشكوان من انعدام التناسب.

"أرأيتِ طوال عمركِ فراشة مثل هذه يا سارة؟. جناح دائري وجناح مربع.. جناح كبير وجناح صغير.. جناح أحمر وجناح أزرق!".

اكتسى وجهها بإمارات الإحباط، وقالت:

"سأرسم مرّة أخرى".

وتقاطرت رسوماتها (فراشات، أشجار، أنهار، حيوانات، بيوت، طيور، وجوه، بشر، أسواق... الخ). وفي العيد فاجأتها بعلبة ألوان مائية، فركضت جذلة تكركر.

"ماما.. ماما.. انظري ماذا اشترى لي كمال؟".

ابتسمتْ أمها فاشتعلتُ خجلاً.

"ما عدتِ تُرينني لوحاتكِ".

"إنها لا شيء.. لا تستأهل".

"ربما لا تعترفين بي متذوقاً لفنكِ؟".

قالت باسمة:

"لا، لا، على العكس.. ليس إلى هذا الحد".

وفي يوم جلبت لها علبة ألوان مائية كبيرة من البصرة.

"لماذا تكلِّف نفسك.. أستطيع الحصول عليها.. في الجامعة أهدوا لي أكثر من علبة".

"إم م م م م."

تململتْ فيَّ فيروسات الغيرة.. غيرة الشرقي العارمة. ولم يكن بالإمكان أن أقول:

"مَن يهديها لكِ؟". من غير أن أختنق.

أسّر لي أحدهم:

"رأيتُ ابنة عمّك في الكافتريا القريبة من الجامعة."

وحدّجني بخبث قبل أن يردف:

"سلّمت عليها، وكان معها شاب جميل قدّمته لي.. اسمه؟. اسمه عماد على ما أذكر".

اصطدمت الفراشات في رأسي.. تساقطت مثل ثمار فاتَ أوان قطفها. وانقضت شهور ومجزرة الفراشات قائمة. وخلال إحدى إجازاتي أغوتني أبالسة الشطط فذهبتُ إلى كلّيتها.

وقفتُ أتلصص على بُعد من الباب الكبير.. خرجتْ معه.. كان طويلاً، ممشوقاً، بشعر مرسل ووجه متورد منشرح.. استدرتُ لأهرب فرأتني.. اتّسعت حدقاتها فغادرت سريعاً ولم أكلِّمها. حتى قدمت عصر ذلك الخميس.

"ما الذي جاء بك إلى كليتي؟".

لم أستطع أن أنكر.. قلت:

"أنا آسف".

"جئت لتراقبني".

"يا سارة، هناك صنف من الشباب....".

"أرجوك..".

ترامت هوّة غارت فيها الألوان، وارتسمت متاهة لا قرارة لها.

"ليس من حقّك أبداً..".

وفقد السجال خيطه الواصل.

"ينبغي أن تكون أكبر من هذا الأسلوب غير اللائق".

شعرتُ بوخز الإهانة، واحتدمت في داخلي كائنات غريبة قاهرة عقلت لساني.. قالت بحدة:

"يكفي إلى هذا الحد، عليك أن تعرف حدودك".

وستقول امرأة عمّي: "عيب هي ابنة عمك".

تركتني سارة للمحرقة التي تقبل إلى أتونها الفراشات، وتتساقط فيها يائسة مثل ثمار فات أوانُ قطفها. أكان ينبغي أن تمر سنوات وسنوات حتى ينتفض الجسد ويتشقق غلاف الشهوة في الهجير الزاحف، وتثور تلك العاصفة القاسية متربصة بآخر الخلايا الطرية.. كان في هبوبها القدري فحيح منذر أكاد أسمعه.

المصادفة وحدها أتاحت لي رؤية المرأة العارية الروح في لحظة اعترافها المذل.. رؤية الصفحة الذابلة للوجه، والأنف الضامر والفم المزموم، والأشلاء.

كانت خالتي تنظِّف غرفة سارة، وكان الباب نصف مفتوح، والخلفية أفق كالح. وفي وسط اللوحة نافذة.. نافذة على هيئة فراشة، وكانت هي الجزء الوحيد الحي في الفضاء الظاهر من خلال باب الغرفة نصف المفتوح، وخالتي تكنس.. قالت لي:

"مالك ساهم".

قلت:

"أحسّ بالضجر".

ولم أكن صادقاً وأنا أتلقى فيضاً من راحة مبهمة. وتمنيت لو أن ثمة سبيلاً لمواجهتها.. لا لإقرار هزيمتها.. لا للتشفي.. بل لتهشيم تمثال الجفاء الزجاجي الكدر.

سألها عارف:

"ما لكِ سارة؟ لمَ أنتِ عصبية؟".

وكدت أقول: "لأن الشاب الأنيق ذا الشعر المرسل والوجه المتورد المنشرح، والنظرة المتغطرسة كان يلعب".

خالتي نسيت إغلاق الباب، أو أنها أبقته هكذا، نصف مفتوح، فاستغرقتني النافذة - الفراشة، وعبرها نظرت.. كان الجسد هناك يتشكل من جديد.. كانت المِزق تندغم وتتناغم. وكانت أسراب محلِّقة من فراشات ملوّنة مثل تلك التي فتنت سارة، يوماً ما، قبل مئات السنين الضوئية، فرسمتها بالقلم الرصاص.

قال نبيل:

"ابدأ من جديد".

قلت:

"أصعب ما يواجه الإنسان هو أن يضطر للبدء من جديد".

قال:

"تعال نتسلى.. قد يكون هذا حلاً.. حلاً مؤقتاً على الأقل".

تعالَ، وكنتُ أعمى وأنا انقاد إلى التيه.. كنتُ في حالة انفصال عن ذاتي، وتوق طعين يلتهب في قفص الروح. وكان المشهد أشبه ما يكون بمهرجان هزلي.. خيم، وبشر من كل نوع، ومساومات مخجلة ومضحكة.. قلت:

"أخشى من الفشل.. أنا لم أعمله قط".

"لستَ أنتَ الذي ستعمل يا عزيزي، بل كائن آخر هو في داخلك.. مدرّب بالوراثة وله خبرة ملايين السنين".

ودخلتُ الخيمة.. كانت جالسة في شبه العتمة.. حدّقتُ فيها فأطلقت كلمة بذيئة جعلتني انفجر مقهقهاً.

ابتسمتْ ونفضت عنها ثوبها، وتصالبت أمامي معبداً للغواية لا يُرد نداؤه، فأغمضت عيني.. جرّتني إليها وانشغلتْ بالأزرار تفتحها واحداً واحداً. وتحطّم القمقم.. خرجَ مارد لعين، كانَ عطشٌ لا يُحتمل يكويه منذ بدء الخليقة.

"سأجيء مرة أخرى".

"أنا أيضاً أرغب أن تجيء مرة أخرى".

قبّلت خدّها فتسربت مع القبلة شحنة من فائض الحنان.. قالت:

"لم يقبِّلني أحد قبلة صادقة كهذه من قبل".

أمضيت في الجبهة شهراً هادئاً.. هادئاً على صعيد المعارك، لكنني كنت أسمع نواح الشهوة في الليالي، في الليالي بخاصة، وأحسّ باشتعال الدم.

في اليوم الثاني لإجازتي التالية سارعتُ بالذهاب إلى خيمتها.. كنتُ متلهفاً، أتوقع أن تستقبلني بالأحضان والقبلات.

قالت المرأة المسنّة الجالسة عند باب الخيمة:

"انتظر".

"لماذا؟".

"هناك رجل في الداخل، عنده ما عندك".

انقبض شيء ما في صدري، وانتظرتُ حتى خرج.. رجل قصير، قميء يكشِّر عن ابتسامة رضا.. ودخلت:

"مَن كان هذا؟".

"منْ؟".

"هذا الذي خرج تواً".

"وما أدراني؟.. حيوان من الحيوانات الكريهة.. ثم من أنت ولماذا تسأل؟".

تعزّز الانقباض في صدري، وشعرتُ بالخذلان:

"أنسيتِ؟".

قالت بإنكار:

"مجنون آخر؟".

وكنت على وشك الخروج حين عاودت السؤال:

"من أنت؟. من تكون؟".

جلستُ على حافة السرير أحملق فيها بغضب فجلستْ إلى جانبي:

"أجئتَ قبل الآن؟".

"أجل.. قبل شهر".

"يعني قبل مائتي رجل.. مائتا رجل دخلوا الخيمة في الأقل بعدكَ وتريدني أن أتذكّرك".

وجنّبني رادع خفي مغبّة ضربها.. يدي الممدودة إليها جذبتها وضممتها إليَّ بقوّة.. بقوّة يائسة محبطة.. وعندما أحسّت بالاطمئنان راحت تكيل لي من الشتائم البذيئة أصنافاً لم أسمع بمثلها قط.

احتويتها على حين غرة بعنف، وألقيت بجسدها على السرير، حتى إذا عقلتُ هذا العنفوان الطارئ تنفستُ بإذعان، فيما عادَ إلى وجهها شيء من ألفته كما خبرتها في المرّة السابقة.

"أقسم أنك مجنون".

ثم، وهي تضربني على كتفي قالت:

"تعال غداً".

وعدت.. وفي الإجازات التالية صارت تستقبلني بشغفٍ لاظٍ.

قلت لها في ساعة انتشاء مسكر:

"أتتزوجينني؟".

"ماذا؟".

وقال نبيل:

"حان الوقت لتقطع صلتك بها".

"لا أستطيع".

"ستفقد نفسك من أجلها".

"أنت ورّطتني".

"يا كمال.. المئات يذهبون إلى هناك، ويكتفون بالمتعة.. أسمعتَ بمجنون عشق مومساً رخيصة وفكّر بالزواج منها".

ولأنها أبتْ أن تستلم مني نقوداً..

"وإلا عددتك كالآخرين".

فقد بتُّ أحمل لها الهدايا، ناسفاً أول مشروع للادخار في حياتي.. ثلاثمائة دينار جمعتها في ستة أشهر وأنفقتها في ثلاثة،

فضلاً عن رواتبي الشهرية.. كان كيسي يحوي دائماً، وأنا في طريقي إليها أثواباً وعطوراً وملابس داخلية وعلب ماكياج، وأنواعاً غالية من الشكولاتة، وكانت تتقبلها بامتنان:

"تعال غداً".

وأغادر مثقلاً بالشجن والمرارة، والشعور بالغثيان.. أقررُ ألا أعود، غير أنني أعود.

أهرع إلى الشيخ عبد العليم.. أسّر له بكل شيء.. أشقّ الجلد.. أفتح الدملة، فيثور، بيد أنه بعد حين يهدأ، وتترقرق كلماته مثل الماء الذهبي الدافق.

"مولاي.. أنا محكوم عليَّ أن أرى."

"إنه حكم الله.. من بإمكانه الفرار من حكم الله العزيز الحكيم.. كلّنا محكومون بأن نرى".

"إذاً.. أنا معذور مولاي".

"لا.. لا .. لا .. لست معذوراً.. {وهديناه النجدين}".

وأقضي ليلتي مسهداً.. أتقلّب في الفراش، واللزوجة في روحي. وأنام نوماً منذوراً بالكوابيس قبيل الفجر، وأستيقظ ظهراً يهدّني صداع عاتٍ.. أتقيأ سائلاً أصفر مرّاً، ويصحبني محمد بعد إلحاح الى المركز الصحّي.. حقنة في العضل، وبعض الأقراص تعيد لي بعض الحيوية.. أتناول غدائي، واستقل سيارة أجرة فاراً إلى دفء صبرية، ومعي نبيل.

"ما لك؟".

"مريض".

وبعد ساعتين وأنا ألبس بدلتي قالت ضاحكة:

"مريض.. أأنت مريض يا....".

"ألم أقل لكِ أنني لا أحب مثل هذه الشتائم".

"أمزح.. أمزح معك.. أتضيقُ بمزاحي؟".

وهنا دخلَ تسبقه رائحة العرق النفاذة.. رجل ضخم، رأسه بحجم بطيخة كبيرة، وكرشه مندلق.

"أاشتريتها يا ابن الـ...."

فوجئت بصوت صبرية يلعلع بضراوة:

"اخرج يا... يا... يا...".

كانت شتائمها تتلاحق حين انقضضتُ على الرجل وضربته على وجهه فشدّ هو قبضته ولكمني تحت عيني.. ترنّحت إلا أنني عاجلته بلكمة.. وقع المصباح النفطي وصاتت صبرية فخرج الرجل هارباً وبقيتُ لأطفئ النار مخافة أن تتسع وتلتهم الخيمة والمخيّم.

أقبل نحوي نبيل:

"هل أنت بخير.. ماذا حصل؟".

"مشاجرة".

"دعنا نذهب.. أنت تنزف".

وكان الغروب يهبط، وريح باردة تسوقُ غيوماً دكناء.

"سأكلِّم صبرية."

"اللعنة على صبرية.. هيا.. أنت تنزف.. سآخذك إلى طبيب".

والدمُ يسيل من أنفي بغزارة أيقنت أنني سأفقد وعيي لا محالة. وكانت الأشياء حولي تدور.. البشر، الخيم، السيارات. وحملني نبيل.. حملني مثلما يُحمل جريح في المعركة، وكانت الدنيا تنطفئ، حتى كاد يغيبُ كل شيء.

وحين فتحت عيني، سألت:

"أين نحن؟".

"في مستشفى بعقوبة".

"ما الذي جاء بي إلى هنا؟".

قال نبيل ساخراً:

"يا له من سؤال غبي".

"كم الساعة؟".

"العاشرة".

"لا...".

"سنخرج بعد قليل.. أتدري كم تعذّبت لأحصل على ورقة من الشرطة.. رفضوا علاجك من دون إذن الشرطة.. المفوّض في المركز كان لطيفاً وتفهّم الأمر وساعدني".

"وهل اعترفت له..؟".

لوى فمه ساخراً، وهمس لئلا يسمعه المريض الآخر الراقد إلى جانبي:

"قلت تشاجر في مخيم السيرك، فصاح سيرك؟ ومن ثم بعد نصف دقيقة استوعب القصة كلها، فراح يقهقه".

"أنت لعين".

"وأنت غبي.. لا تفكّر.. تتشاجر من أجل امرأة يمتطيها في اليوم الواحد عشرة رجال.. وتريد الزواج منها.. غبي .. وتضحك أيضاً.. ما الذي يضحكك؟"

قلت: "هذه هي المرة الأخيرة". ورجعت إلى البيت في ساعة متأخرة والريحُ باردة، قاتمة، وبين الليل ونجومه جفوة مؤسية. وطلبت من محمد أن يهيئ لي الحمّام، وأن لا يسأل.. لم أكن في حالة تُمكِّنني من الكلام.. استحممت، ثم نمت حتى الصباح.

استجوبني عمي لمّا رأى الورم على شفتي وأنفي، والدائرة البنفسجية تحت عيني اليمنى، وكان من المستحيل أن أحكي لهم

القصة بصدق، وهدّدت بترك البيت، إلى الأبد، إذا لم ينتهوا من هذا التحقيق، فاستسلموا.

ـ ٤ ـ

قلت للشيخ عبد العليم:

"إنني هُزمت".

قال: "لا..". تلك الـ (لا) الباترة، التي لا أملك أن أفعل شيئاً إزاءها سوى السكوت، ردعني بها مرة أخرى.. قال:

"لا.. على العكس تماماً يا بني.. هذه هي العلامة.. بشير الانتصار. قم توضأ وصلِّ".

قلت:

"إنه ليس بوقتِ صلاة".

قال:

"لا يهم.. إن الله سميع بصير في كل حين، وفي كل مكان".

قمتُ.. توضأت وصلّيت.. كنتُ وحدي في الحرم، ودورة الشمس بين العصر والغروب.. ثم نمت.. نمتُ نوماً مريحاً، حتى أيقظني أبي.. قال:

"اشتقت إليك..".

فتحت عيني.. كان الشيخ عبد العليم يبتسم.

"هنيئاً..".

"أنا آسف يا مولاي.. ما كان عليَّ أن أنام في الحرم".

"بل كان عليك".

أغمضتُ عينيّ تحت تأثير بقايا النعاس فحلّق سربٌ من الكراكي.. صعّدتُ نظري إليه وهو يغور في الزرقة المرمّدة ويتلاشى في الشفق الكامد فامتلأتُ بالشجن.. كان السرب الراحل يستجيبُ لغواية موسم آسرٍ وغامض.. في مكان بعيد.. بعيد.

تلك كانت رؤياي.

مدار الكلمات..
مدار الأمكنة

- ١ -

رغب كمال أن يترك قصة في العالم، وأظنّه فعل..

أمسكُ بصورهِ ولا أمسك، وهي تترجرج مثل ظلال أغصان يلاعبها هواء خفيف. مثل عطرٍ غامضٍ في حلم. مثل الكلمات الأولى يلثغ بها لسان طفل.

تُحضرني إليه أماكنه؛ الدروب التي ألفتْ خطواته.. الحكايات الصغيرة التي عافها بأريحية أو أسى. والهالة السحرية من الحنين التي تباغتني كلما قطعت بعضاً من تلكم الدروب، أو استرجعت شيئاً من تلكم الحكايات.

الدروب والحكايات وهالة الحنين وقد تشكّلتْ في جغرافية عجيبة ألتقطهُ ساعةَ ينسلُّ مقوداً بطيف عزلته؛ يمشي وحيداً، يداه في جيبي بنطاله الجينز، فيما ملامحه محبوسة بالهمّ، ونظرته ساهمة. وأتساءل؛ لِمَ؟ ما الذي يدور في رأسه؟ أية مشاعر وهواجس تستغرقه؟ وأية أحلام تراوده، صغيرةً كانت أو كبيرة؟.

هنا تعجز المخيّلة والكلمات، وتتعثر.

"نحتاج أحياناً أن نبقى وحدنا"، قال لي ذات مرة، بعدما أبديت استغرابي من جولاته الطويلة، من غير رفيق، في

دروب البساتين، وبين الحقول.. والآن أرجِّح احتمال أن يكون قد رُهن يومها بمدار عشقٍ مستحيل.

كم كنت بليد الذهن، إذن، ومفتقراً إلى اللمّاحية، إذ لم ألحظ أنه ربما كان غائراً حدّ الجرح بحلم سارة.

- ٢ -

يقدم من ثنايا جملة يُربكها حزن أصفر، وما كان وحده.. كنتُ معه.

"ليست أزهار عبّاد الشمس كلها تستدير نحو الشمس.. بعضها ملول، وبعضها غافل، بعضها متمرد، وبعضها لا يأبه".

"أفكارك غريبة أحياناً". أقول له.

يحوِّم يده في الفضاء، كما لو أنه يبغي ملامسة حافات الصيف قبل أن ينتصف النهار.. تلصف على جبينه حبّات عرق، ويعفِّر حذاءه وأسفل بنطاله الرصاصي الغبار.. يُخرج من جيبه علبة سجائر (مارلبورو).. يعطيني واحدة، ويضع في فمه أخرى.

"أعرف أنك لا تدخن"

يشعل سيجارتي أولاً بقداحة صغيرة زرقاء، ومن ثم يُشعل سيجارته.. ينفث الدخان، مرسلاً نظره فوق رؤوس الأزهار الممتدة أمامنا، من غير أن نتبين لها نهاية.

"الحرب عقيم"

"ستنتهي يوماً ما"

"دائماً بعد فوات الأوان"

"الدنيا حر.. ما رأيك في أن نعود"

"أتساءل لِمَ بنوا بلدتنا بعيدة عن النهر؟"

"ربما ليتداركوا الفيضانات"

"لا .. ربما كي لا يحلموا كثيراً"

"ماذا؟"

يرمي سيجارته.. أنا الآخر أرمي سيجارتي التي لم آخذ منها سوى نَفَسين.. يمشي باتجاه النهر.. أتبعه.. ألحق به.. الهواء ساخن.. يركض.. أجاريه، ثم سرعان ما أتوقف.. يتوقف.. يلتفت إليّ ويقول ضاحكاً: "غلبتك".

نسمع زعيق طيور تمضي فوقنا.. نصعِّد عيوننا إلى السماء.. سرب الأوز البرّي بنسقه المتناغم البديع يسحرنا.. وحين ينأى نستأنف مسيرنا إلى النهر.

- ٣ -

أختارُ من أشرطة كمال (بحيرة البجع) لتشايكوفسكي.. ألقم الشريطَ آلة التسجيل.. أغلق باب الغرفة.. أضغط على زر التشغيل.. يقطع صمتُ أول الشريط مع سكون الليل قبل أن تشعّ الموسيقى.. أجلس على كرسيّه.. أسترخي وأغمض عينيّ.. مع انسياب اللحن أشهق بعمق. يمتلئ صدري برائحة غامضة غريبة وخفيفة.. ويشفُّ وجه كمال مرتسماً في صورة يزيح وجه الأمير سيجفريد المحاط بأصدقائه وصديقاته الراقصين في عيد ميلاده، وقبل أن ينبِّهه أحدهم إلى سرب البجع العابر فوقهم.. خصلة من شعر كمال نافرة على جبينه، ووجهه يشي بالمرح والسطوع.

يأخذ دراجة أبي.. يقفز على مقعدها ويقرع الجرس.. يصيح بي: "هيّا اجلس خلفي".. أقول له "عمّك سيغضب إذا ما أتلفت أحد الإطارين".. يقول ضاحكاً: "ولِمَ، إذن، فتح مصلّح الدراجات دكّانه". أقول: "اذهب أنت".. يقول: "هذا وقبل أن تسألني إلى أين"

"لا يهم".

"بل يهم".

"إلى أين؟".

"إلى لا مكان".

ويعاود الضحك.. يلوِّح لسارة الخارجة من غرفتها.

"هلو سارة".

"هلو، إلى أين؟".

يستدير بالدراجة نحوي:

"أختك أذكى منك".

يستدير بها نحو سارة:

"إلى بحيرة البجع".

مشدوهاً بمنظر البجعات يُباغت الأمير سيجفريد بالبجعة البيضاء تستحيلُ إلى الأميرة أوديت؛ أنثى بكامل بهائها وأناقتها، يحيط برأسها الريش.. ذروة درامية أولى.

لكن في عينيّ سارة طيف ساخر.

"أتعرفين قصتها؟".

لا تُجيب.

"هيّا".

وينطلق بالدراجة، في الباحة، نحو الباب الخارجي المفتوح على الزقاق.. أجري وراءه.. ألحق به.. أجلس على المقعد الخلفي بشكل جانبي.. أمسك بخصره لئلا أقع ورجلاي متدليتان، أخشى أن تصطدما بالعجلة.. ينحدر مع الدرب المفضي إلى

جهة البساتين، حيث بضع نساء يجلسن أمام أبواب بيوتهن، مستغرقات بالثرثرة.

الوقت ما قبل الغروب.. تمتد الأحراش على طول جدول داود.. فيما الطيور تقبل، بزعيق مرح، فرادى وجماعات، لتختفي في عتمة الأشجار.

"لا تقل لي أنك تقصد النهر؟".

"لا .. أريد أن أرى الكراكي".

"ماذا؟".

"قبل أن تهاجر".

وكان على الأمير سيجفريد أن يقتل الساحر ويخلص بحبه للأميرة أوديت ويتزوجها كي لا ترجع ثانية وتكون بجعة. غير أن لا أحد كان بإمكانه أن يبصر الخيط القدري الذي يشدّ كمالاً إلى نهايته.. حدسه الذي افترضتَه ربما أومأ إليه. وقد يكون فهم الإيماءة قليلاً أو كثيراً.

كانت هناك الكراكي بأعناقها العالية، ببياضها النظيف، بجمالها وكبريائها، تختال حول غدران تركها مطر البارحة.

بخطوات حذرة اقتربنا، وباحتراس جلسنا خلف أجمة من الأحراش.

"ماذا لو كان الساحر قد قلب حبيبتك إلى طائر الكركي".

"خيالك شغّال"

"تصوّر أن تأتي وتنقذ أميرتك من مصيرها الذي حدّده الساحر الشرّير".

"يبدو أنك تتفرج كثيراً على أفلام الكرتون".

يضحك بصخب.. تتنبه الكراكي.. تصفق أجنحتها، وتحلّق.. تطير شمالاً..

نصمت.. نقف.. أختلس إليه النظر.. عيناه غارقتان بالأسى والدمع، يتابع سرب الكراكي التي راحت تذوب في ظلمة الأفق.

- ٤ -

أستلُّ من صندوقه علبة سجائره المارلبورو، تُخرجني من مطر الليل، وتُدخلني كرنفال المقهى.. الدخان يتكاثف، ويتشكل اللغو، فوق الرؤوس، كغيمة ثقيلة. فيما لا أحد يُصغي لنشرة الأخبار في التلفزيون.

أبصره جالساً قبالة نبيل، كوعه على المنضدة العالية. وبين أصابعه ما تبقى من سيجارة. ألمح لجزء من الثانية جمرتها المشعّة قريبة من أصابعه تكاد تحرقها.. حالما يراني يرمي السيجارة أرضاً ويسحقها بقدمه، ويشير لي: "تعال". عائداً، بعدما أجلس إلى جانبه، لإكمال كلامه مع نبيل.

أرتشفُ من استكان الشاي الذي يضعه النادل أمامي، وأستمع إليه.

يؤكد لنبيل أن عليه ألا يسيء الفهم، وأن الحب، مهما حاولنا، لا نستطيع تعريفه. فقط يمكننا الشعور به.

"إنه كالموت" قال وأردف: "أبداً لن نقدر على ملامسة حقيقة الموت، لكننا نعتقد أننا نعرفه جيداً".

قلت: "لماذا هذا الحديث عن الموت؟".

ضحكا معاً وأكّدا أن الحكاية طويلة، وليس من حقي أن أقع على تفاصيلها.

قلت مستنكراً: "لماذا؟".

قال نبيل مازحاً: "لأنك لم تنضج بعدُ يا بني".

وعادا يضحكان، فضحكت معهما.

والآن أيضاً لا أستطيع الجزم؛ أكانا يتحدثان عن سارة، أم عن الغجرية، أم عن مها؟. وأرجع اليوم لأسأل نبيلاً فيقول إنه لا يتذكر.. وربما لم يكونا وقتها يعنيان امرأة بعينها.

"كانت ثرثرة مقاهي يا محمد".

أمسكه من ساعده وأضغط عليها.

"نبيل، أنت لا تعينني كثيراً".

"ليس عليك التصريح بكل شيء.. هناك أشياء يجب أن تظلّ سرّاً، أو ببساطة علينا نسيانها".

يا إلهي؛ كم ثغرة عليّ أن أترك في هذه الرواية؟

- ٥ -

صعدنا التلّ نجري، والهواء يصدّنا.. سمعنا عويل القطار خلفنا ولم نلتفت حتى صرنا في القمة.. وقفنا واستدرنا بأيدٍ مرفوعة كما لنحيّي سحابة البخار الأبيض الذي لاح مثل وشاحٍ هائل فوق العربات. والقطار يهبط غرباً بين حقول القمح والسواقي، فيما بيوت الطين المتباعدة تنمِّش المشهد الفسيح الأخضر تحت سماء فيروزية باردة. وشعر كمال الطويل السبط تقلّبه الريح الطريّة فأقول له: "أذناك محمرّتان". ويسألني: "لماذا لا تطيل شعرك؟". فأجيب وأنا أضحك: "لا ينفع معي، فشعري من النوع الوبري". فيضحك بصخب، وتتصادى ضحكته في الأعالي. ولا يأبه حين أنحني لألتقط كسرةً من فخّار قديم، وأعرضها أمام عينيه اللامعتين وأقول: "جدّك المائة يرقد هنا". يأخذ القطعة مني، يتأملها ويعضّ شفته السفلى ويقول وقد هدأ: "ماذا يا محمد لو انشق التلّ الآن، وخرج جدّنا بهيكله العظمي منتفضاً ليوبِّخنا بسبب سوالفنا الطويلة، وبناطيل التشارلستون التي نلبسها؟". أعاين وجهه الحليق وقد ترك سالفيه الثخينين يصلان أسفل شحمتي أذنيه بعكس سالفيّ القصيرين والخفيفين، وشاربيه اللذين شذّبهما بعناية كشاربي أحمد مظهر في فيلم (الأيدي الناعمة) وهو يختال أمام مريم فخر الدين وليلى طاهر.. "إلى مَ تنظر؟" يقول لي ويلكمني على ذراعي فألكمه على كتفه فيحظنني بقوة ليطيح بي فأقاومه، غارقاً بالضحك، وقبل أن نقع كلانا أرضاً يُفلتني ويقول: "يا قوي". وما زلنا نضحك كما لو أن مسّاً أصابنا.

من جهة النهر الذي يبدو في شريط طويل متعرج متلامع، خلف البساتين، تدوّي إطلاقة بندقية صيد فنرى أسراباً من طيور الزاغ والزرازير مهتاجةً خائفة، تتقاطع في تحليقها فوق بحر النخيل الممتد حتى خط الأفق. تُسكتنا الإطلاقة ثواني قصيرة.. يتساءل: "أترى في قتل الطيور أي نوعٍ من الشجاعة؟". "ليست الشجاعة ما يفكّرون به، وإنما شهوة الأكل اللذيذ". أقول له، فيقذف بقطعة الخزف القديمة بأقصى ما يمور فيه من طاقة فتستقرّ أسفل التلّ. ثم يهبُّ ويمسكني من جذعي، يشدّني ويلويني، معاوداً اللعب.. نسقط أرضاً.. نتمرّغ فوق كِسَر الخزف والتراب الندىّ الذي لم يجفّ تماماً منذ مطر أول أمس.. تتلوّث ملابسنا، ونجلس لاهثين نضحك.. أقول: "ستغضب خالتك" فيقول: "ستلومنا وتشتمنا.. الكلام نتحمّله، ولا أظنها ستلاحقنا بعصا المكنسة". ونضحك نضحكُ.. يمرّ في الجوار فلاّح وامرأته.. يرفع ذراعه للسلام علينا فنرد برفع ذراعينا.. وتخزرنا امرأته بنظرة ساخرة كأنها تقول في سرِّها: "ترى ماذا يفعل أحمقان متبطلان في ساعة كهذه على التلّ؟".

يكفُّ كمّ بنطاله التشارلستون الفستقي اللون، الضيّق حتى الركبة والعريض بإفراط أسفل ساقيه وأفعل مثله مع بنطالي الذي لا يكاد يستحق أن يكون على موضة التشارلستون بالمقارنة مع ما يرتدي.. هذا لنركض بعدئذٍ من غير أن تدخل القماشة الفضفاضة تحت حذائينا وتُسقطنا.

الشمس تهبط كرةً برتقالية متوهجة، ويخفت بريق فيروز السماء الفسيحة، وترجع آلاف الطيور إلى منازلها العالية بين

سعف النخيل وعلى أغصان الأشجار.. نقوم.. ننزل التل راكضين. وأخشى أن تعثر قدمه فيسقط ويتأذى وهو يسبقني بخطوات، لكنه يستمر بالجري كأنه خائض في سباق عدو المسافات القصيرة، وأنا في أعقابه، لا أقدر على اللحاق به فأصيح: "توقّف، ستسقط وتنكسر عظامك". يتجاهلني. أو هو لا يسمعني، وشعره الطائر في الريح يضفي على قوامه الرشيق المشدود أناقة رياضية لا أملكها. ويظل يركض في الممر الترابي الضيق بين سنابل القمح. ويصل ربوة سكة الحديد يتسلقها بخطوتين عريضتين.. يصير بين خطّي السكة.. يتقافز فوق القواطع الخشبية مطلقاً صراخاً حاداً على طريقة الهنود الحمر كما نشاهدهم في أفلام هوليود. وأحس بالاختناق.. أقف، محنياً ظهري لأستعيد أنفاسي، ولمّا يقف أخيراً تكون المسافة بيني وبينه أربعين متراً أو يزيد. فيصيح بي، لكنّي لا أميّز ما يقول، وما زلت على انحناءتي.. يُفاجئني من الجهة الثانية للسكّة كلب رمادي ضخم، من النوع المهجّن، يطفر الساقية نحوي فانتصب مرتعباً، محاصراً بأنيابه الصفر ونباحه الشرس. وفيما أتنفس بصعوبة أرى كمالاً يقبل نحوي راكضاً صارخاً.. يقترب الكلب، ولا أفعل شيئاً غير أن حصاةً يرمي بها كمال الكلبَ تضرب حديد السكة فينبعث رنين قاسٍ يجمِّده، وحصاةً أخرى تُخطئه أيضاً غير أنها تجعله يهرب إلى الجهة التي جاء منها نحو بيتِ طيني على مرمى حجرٍ منّا.. يقول كمال: "حين يهاجمك كلب عليك أن تنحني وكأنك تأخذ حصاة من الأرض لتخيفه حتى وإن لم تكن هناك حصى".. يقبل رجل أربعيني، أظنه صاحب البيت الطيني والكلب، حاسر الرأس بخلاف

الفلاحين، دشداشته بيضاء متربة كأنه ترك لتوِّه شغله في مزرعته. يسألنا عمّا نريد فنقول كنّا في طريقنا فهاجمنا الكلب.. يقول إنه آسف.. ويدعونا إلى بيته لتناول وجبة العشاء فنشكره ونعتذر.. نستأنف سيرنا.. كمال يعلِّق ساخراً ويضحك بسبب واقعة الكلب، مبتعداً عنّي بخطوات لئلا أضربه، وأنا أقذفه بحصى صغيرة متعمداً ألاّ أصيبه. ونعود نركض كلانا، ضاحكين بانشراح، في الغروب البارد.

- ٦ -

أخطو على سفح التل بأقدامٍ متعبة كأنني أكبر من سنّي بعشرين سنة. يتولاني شعور ثقيل بالوحدة والضياع.. الهواء ساكن، والشمس تبعث ضوءاً مغبرّاً، ساخناً قليلاً، وقد طفق بالخفوت منذ بعض الوقت.. الضوء الكابي المغبرّ أحسّه ينفذ إلى داخلي، فيحيلني أنا والعالم نسيجاً واحداً، مؤسياً ومقبضاً.. بنطالي بنهايتي ساقيه السفليتين الضيقتين لا يكاد يصلُ كاحليّ، وحذائي الذي منحه الإسكافي، قبل يومين عمراً جديداً؛ ثلاثة أشهر إضافية أو أربعة بحاجة إلى التلميع، فيما قميصي الذي اشتريته من كومة الملابس المستعملة بعشرة دنانير واسعٌ عليّ، غير أن مربعاته الزرق تعجبني.

التلّ محفّر، نبشه فريق الآثار منذ سنوات.. أصل القمة بخطواتي الوئيدة.. الحقول حولي، على مدّ النظر، خربة، وعمّالٌ ما زالوا يقلعون بقايا سكك الحديد، بعدما ألغي خط قطار بغداد ـ كركوك.. أسرح بنظري باتجاه شمال غرب البلدة.. خضرة البساتين، خلف ما كان حقولاً، كامدة. والنهر البعيد ليس باستطاعتي رؤيته. أما بيوت الطين التي كانت فلم يبق منها سوى بيتين متباعدين، والبقية حالت إلى خرائب وأطلال.

يمرق عصفوران، وثمة باشق فارد جناحية يتربص في الأعلى.. وعند حافة التل تنهمك ثلاثة غربان على التهام ما تبقى من لحم كلب نافق.. أجلس على كومة من تراب أخاله مخلوطاً برميم عظام جدي المائة.. أُخرج علبة سجائر (سومر) من

جيبي، وبعود شخّاط أُشعل واحدة وأدخن.. حلقات الدخان تلبث طويلاً أمام وجهي قبل أن تتلاشى.. لن يمرّ القطار بعويله الحميمي المسالم، الآن، بالتأكيد، وربما حتى بعد خمسين سنة.. لن تتصادى، مرة أخرى، ضحكات كمال في الأرجاء أبداً.. وسيبقى الحنين يمضّني لمنظر جريه على العوارض الخشبية لسكة الحديد، وأنا أنحني تعباً والكلب يهاجمني فيرجع هو، كمال، في يده حصاتان، لم ألحظه لمّا التقطهما من الأرض.. يرمي واحدة فترنُّ السكة ـ صدى المعدن القديم يملؤني في هذه اللحظة ـ ويرمي الثانية فيهرب الكلب، كأنني أراه، الساعةَ، يختفي خلف السنابل العالية. ونعود نضحك، غير أن ذاك البيت في الجوار لم يعد، والكلب لا شكّ مات منذ سنين، والساقية التي قفز فوقها يبست، والفلاّح مع عائلته، الآن، في مكان آخر، ومصير آخر.

أُفاجأ برجلٍ يلفُّ رأسه بكوفية مبقّعة بالأسود والأبيض، يتكئ على عصا غليظة نهايتها التي يمسك بها مغطاة بكرة من القار الصلب، يرتقي التل من السفح الثاني حيث الغربان الثلاثة ما تزال تبحث عمّا بقي من لحم الكلب النافق؛ هو في الستين ربما أو أكثر ببضع سنين.. أخمِّن عمره من ثقل خطواته وانحناءة ظهره.. دشداشته متربة، وحذاؤه من اللدائن الرخيصة المعاد صنعها.. أنزل لأعينه على الصعود، غير أنه في اللحظة التي ألمس فيها ذراعه يجلس ووجهه باتجاه الخلاء الجاف العريض.. بشرته سمراء متغضنة، وعيناه رماديتان باهتتان.. أجلس إلى جانبه.. يسألني عن الحال وكأنه يعرفني منذ الأزل، ويخبرني

بأني محمد ابن الشيخ سعيد عامل المطحنة: "أبوك رجل طيب، وكذلك كان عمك الشيخ رشيد ألف رحمة على روحه" يقولها ويربت على كتفي. بيد أنه حين يشرع بالحديث عن كمال يجتاحني تيار واخز ينمِّل جلدي، فأجدني وقد ازدادت نبضاتي، وبات الدم يسرع في عروقي، وسرتْ رعشة في أطرافي.. وأسأله بنبرة مشروخة إن كان التقى كمالاً ذات مرة، فيقول: "مرات.. مرات".. يسكت ثواني قليلة، يلتقط كسرة فخّار قديم من بين قدميه ويرميها.. "هو كان صديق ابني عبد الله، معاً كانا في الجامعة المستنصرية، ولطالما تناول غداءه في بيتنا.. كانا يتباريان في السباحة بجدول داود المار خلف منزلنا، أو في نهر ديالى، ويأتيان ليتناولا بنهم الخبز المنقوع بمرق البامياء، ويشربان كثيراً العيران المحضّر من لبننا الرائب، يوم كانت لنا ست بقرات، ومائتا رأسٍ من الغنم والماعز". أسأله عن عبد الله، الآن، أين هو؟.. يصفن.. ينقر بعصاه على قطعٍ من الفخّار المهشّم القديم، وعيناه مصلوبتان على منظر الحقولِ اليابسة.

"أسافرَ؟"

"حضر كمال مجلس الفاتحة، وبكى.. أذكره يوم عانقني وبكى"

"أنا آسف.. يرحمه الله"

"يرحمهما الله"

"هل استشهد في الحرب؟"

"مات من مرضٍ حيّر الأطباء ولم نعرف له اسماً.. كأنه كان يذوب في كل يوم حتى لم تعد له طاقة على التنفس"

ونصمت كلانا.. نصمت طويلاً.. يقوم.. ينزل السفح ويمضي نحو منزل بعيد، عند كتف آخر بستان، هناك، حيث الشمس كتلة عظيمة، يبدأ الأفق بابتلاعها، ويخنق توهّجها الغبار.. يخبُّ بعصاه بين أعواد النباتات التي أحرقها العطش وحرّ الصيف الفائت.. وأنا أقوم.. ألتف حول القمة، ألتفت إلى الرجل الستيني وقرص الشمس الذي التهم حلق الأفق نصفه.. أنحدر بتأنٍ من الجانب الآخر.. تتقافز قبّرتان على مبعدة أمتار منّي، وتترامى لمسمعي عواء بنات آوى من جهة البساتين.

تهيأ لي أنهما طائرا كركي يلوذان بين أعواد نباتات عبّاد الشمس الجافة.. لم أبصر كركياً منذ سنوات.. تساءلت فيما إذا كان من المعقول أن تقبل الكراكي إلى البلدة في مثل هذا الموسم.. نزلت ربوة السكة وعيناي معلّقتان بتلكما الكتلتين البيضاوين الظاهرتين في فجوتين ضئيلتين بين الأعواد.. وأنا أدنو كانت معدتي تتقلص وتدهمني مشاعر مختلطة تتناوب بين الراحة القلقة والضيق.. كان الهواء الدافئ الذي راح يهبُّ منذ دقائق يُصيب عينيّ بحرقة خفيفة.. مع اقترابي لم يبتعد ما اعتقدت أنهما زوجٌ من الكراكي.. كانا يتحركان، غير آبهتين بي، تجلل بياضهما حمرة الغروب المحتقنة.. بديا وكأنهما يؤديان رقصة غرام آمنة، أو ينقران الأرض بحثاً عن طعام.

تلوّت أفعى رفيعة وطويلة بلون الكاكاو لتختفي بسرعة وراء مستعمرة صغيرة من الأشواك، واضطربت حشرة خنفساء فاحمة فانسلت مذعورة إلى شق في الأرض.. بعد بضع خطوات بين أعواد عبّاد الشمس الجافة توقفتُ ورحتُ أضحك متهكماً من سوء ظني.. ليس ثمة كراكي، وإنما قطعة كبيرة منبعجة من النايلون الأبيض يعبث بها الهواء.

وحدي، كأن العالم خلا من ساكنيه أعود لأمشي ببطء على الربوة الطويلة التي أُنتزع منها حديد السكة وعوارضها الخشبية، غير مكترثٍ للوقت ولا للظلمة التي باتت تهبط، ولا لنباح كلب لا أراه.. فقط كنت أغالب دمعة تريد أن تنفلق.

مدار الرائحة

- ١ -

تشعر سارة بأني كلّما مضيت أبعد مع رواية كمال نلتُ أذىً أكبر، لكنها لا تجرؤ أن تنصحني لأتوقف. ربما لأنها تعرف بأنها لن تفلح مهما حاولت أن تقنعني بالتوقف. وربما لأنها لا تفكِّر أن تطلب منّي التوقف حقاً. فمثلما أراد كمال الرواية، وأردتها أنا، تريدها هي أيضاً، بالشغف ذاته، بالرغبة ذاتها، بحرقة الروح ذاتها.

ربما لست جريئاً بما يكفي لأقول كل ما أعرفه عن كمال.. وربما لست حكيماً إلى الحدّ الذي ألمس فيه المعنى العميق لحياته.. ولا أزعم أنني موهوب بذلك المستوى الذي يؤهلني لكتابة رواية عنه تتبارى مع ما كتبه مارسيل بروست في (البحث عن الزمن المفقود)، في سبيل المثال، لا الحصر. لكن، كلما اقتربت من شاطئ نهر ديالى تُحدث رائحة النهر صدعاً في رأسي يخرج منه هو؛ كمال، مبللاً تتساقط قطرات الماء من شعره وتسيل لامعة على صدره وبطنه، فاتحاً فمه، لأنني فاجأته بمجيئي إلى الشاطئ في أول ساعة من إجازتي.. يشرع ذراعيه.. يصيح: "محمد".. أشرع ذراعيّ.. يردف: "ما كنت أتوقع أن تأتي إلى النهر".

وهذا المشهد الشبيه بحلم مورّد لا يفارقني.. إنه مشهد في الضوء والهواء، وماساتُ النهر تتهادى، تعبث مع الشمس.

يعانقني فتتبلل ملابسي.. يقول:

"انزعها.. دعها تجف، وتعال لنسبح سويةً"

أخلع ملابسي فيأخذني من ذراعي.. نركض على طين الضفة مترنحين، غير أن كلاً منّا يسند صاحبه فلا تنزلق أقدامنا، ويجذبنا النهر إلى صدره، فيقول مشيراً بإصبعه إلى جهةٍ:

"ابق مع التيار، وتحاش البقعة القريبة من تلك الشجرة على الضفة الأخرى".. أقول: "لِمَ؟". يقول: "لا أظنك قادراً على اللعب مع الدوّامات".

"لنر"

"لا.. ليس الأمر مزحة فاستر علينا".

قال لي الجندي الذي حمله من أرض المعركة وأتى بنعشه إلينا، ونبيل إلى جانبي:

"كان كمال مخلوقاً للحرب.. لا أستطيع أن أتخيله إلا بلباس الميدان، حاملاً بندقيته".

قال نبيل في ساعة اختلائه بي بعد دفن كمال:

"لا.. كمال كان ضحيّة.. هو ليس ضحيّة الحرب وحدها، بل ضحيّتنا وضحيّة نفسه أيضاً.. ضحيّة مصادفة وجوده في هذا الزمان، وهذا المكان، كما أنت وأنا. كما نحن".

وستقول لي خالدة هامسةً:

"ما كان كمال مخلوقاً لخوض الحروب.. كان مؤهلاً فقط ليكون عاشقاً يجلس على مقعد في حديقة بصحبة امرأة تشبه حمامة يغازلها بكلام حلو".

ـ ٢ ـ

كلّ رائحة تفتح شرخاً في الساعات.. في ساعة الشغف.. في ساعة الألفة والرقة.. في ساعة البصيرة.. في ساعة الجنون والألم.. في ساعة الحزن والسأم والحنين، وأخيراً ـ أهناك أخيراً حقاً؟! ـ في ساعة الموت.

يخرج كمال من عتمة الأشجار إلى الغسق الدموي.. لا كراكي ثمة.. لا رعاة منهكون يتبعون قطعانهم.. لا قوارب تجرح جلد النهر البعيد.. ألمحه من خلل فتق تفتحه رائحة هواء الليل في ساعاته الآفلة.. يباغتني بالبقعة البنفسجية الكالحة تحت عينه اليسرى.. ببقايا الدم على شفته المتورِّمة.. بصمته الساخر الساخط.. بنظرته الفارغة وهو يغادر مركز الشرطة بعد إيداعه غرفة التوقيف مع قحطان دوحي طوال نهار طويل قائظ.

أخبروني أن قحطاناً هو من هاجمه في السوق مع حمولة شتائم غاية في البذاءة، وغاضبة. لكمه على وجهه لحظة أخذ كمال طاس اللبن الرائب من المرأة القروية الجالسة أمام بضاعتها من الألبان، قرب باب مقهى عبو نجم. فتطشر اللبن على عباءة المرأة، وعلى طرف دشداشة رجل يقف في الجوار، وعلى الأرض.

أنا وأبي كنا جالسين في غرفة ضابط المركز حين جاء شرطي بقحطان من زنزانة التوقيف.. كان وجهه مبقّعاً بالكدمات، ويضحك.. اعتذر منّي ومن أبي، وقبّل كمالاً.

قال: "تكلّمنا". ومضى.

ولم نفهم، لا أنا، ولا أبي، ولا حتى ضابط الشرطة، ولا أي أحد في حينها، سبب ذلك الشجار الذي صار مصدراً لتكهّنات، بعضها لا معقول، وبعضها سخيفٌ وسافل. ولم يعلِّق كمال سوى بعبارة مبهمة: "كان سوء فهم" على إلحاح أبي عليه.

بعد أيام قلت لنبيل: "أنت تعرف السبب.. ما كان لكمال أن يخفي عنك مثل هذا الأمر".

قال: "أعرفه، وأفضِّل ألا تعرفه أنت".

وعدت بعد رحيل كمال لمّا انهمكت بكتابة روايته أسأل نبيلاً عن ذلك الشجار ثانية.

"لن أخبرك".

"أهوَ أمر يتعلق بأخت قحطان؟".

"لا".

"لا تقل لي بزوجه".

"لا تنبش عمّا لا يفيد".

"أكان كمال..؟".

"لا".

"إذن؟".

"لا شيء.. في غرفة التوقيف جلس كل في زاوية.. وضعهما ضابط الشرطة بخبث معاً.. لم يكن معهما أي شخص آخر. وكان الاحتمال الأكبر أن يواصلا ضرب بعضهما بعضاً، لكنهما لم يفعلا"

"أذكرُ هذا".

فتح كفيّه فارداً أصابعه، وكأنه يقول لي هذا كلّ شيء.

"عمّ تكلّما؟".

"تحدّث كمال بهدوء، وأنت تعرف كيف كان يغدو مقنعاً حين يهدأ.. لم يعلمني بالتفاصيل كلها.. بقي قحطان ساكتاً".

"وبعد".

"لا شيء بعد.. انس".

"أكان لكمال حقاً علاقة بها؟".

"لا.. يبدو أنها كانت مغرمة به من طرف واحد".

"أتعتقد؟".

يهز نبيل رأسه.. لا يبدو متحمِّساً لإكمال الحكاية.

"أنلعب الطاولة؟".

" لِمَ لا؟".

- ٣ -

قطفتُ حبّة تين ناضجة وأعطيتها لنبيل.. "امسحها بأصابعك وكلها".. أخذها من يدي.. شمّها وظلّ يحدِّق فيها.. قال:

"أتعرف أكثر أمرين كانا يشغلان ذهنه، ويتحدث عنهما"

وخمّنت أنه يقصد كمالاً.. جاءت سارة بصينية الشاي ووضعتها أمامنا على منضدة صغيرة.. انتظرَ حتى توارت في المطبخ، وعاد يسألني:

"أتعرف ما هما؟"

كنّا نجلس على كرسيين خشبيين، في الباحة، بعد الغروب.

رفعت رأسي وكأني ألاحق بنظري أعداد النجوم التي بدأت تتألق من بين الأغصان.. هبّت نسمة منعشة فارتعشت الأوراق.. قلت:

"نحن في نهايات الصيف"

والتفتُّ إليه.. خرجتِ الكلمات من فمي حادةً، وبشيء من الجزم:

"الحب والحرية"

هزّ رأسه نافياً: "أصبت في واحدة، وأخطأت في واحدة".. ولمّا لم أعلّق، أضاف: "الحب والموت".. وضع حبة التين

بالقرب من الحافّة المعدنية للصينية، وأخذ استكان الشاي.. نفخ على سطحه وارتشف قليلاً.. سألت: "الموت؟".

"وذات مرة أتعرف ماذا قال لي؟".

"ماذا؟".

"لا أتخيّلني في صورة كهل أو عجوز. أظنني سأبقى شاباً وإلى الأبد".

امتدّ بيننا صمتٌ ذاهل.. وعلى حين فجأة ارتفع من المطبخ صوتيّ بكاء أمي وسارة.. قلت: "كانتا تسمعاننا".

قال بنبرة متحشرجة: "أنا آسف".. التقط حبة التين من الصينية، وخرج.

ـ ٤ ـ

يتناثر كمال في خطوط الذاكرة.. في خفايا الوجود التي يعسر تعيينها.. أرصدهُ في ذلك التشابك العجيب من الصور، وكلّها تحاكي حلماً طويلاً، لا أقدر على الخروج منه.. صور تتنافر حيناً، وحيناً تتآلف وتتسق.. فيما منال الرواية يرتسم أمام ناظريّ قريباً وبعيداً.. تحت شمس الله، وخلف الضباب، في آن معاً.

تغدو الرائحة دليلي إليه.. الرائحة تغويني، تستدرجني، توقفني في المشهد.. رائحة لبّ النخلة وطلعها.. رائحة شجرة التين.. رائحة زهر البرتقال.. رائحة البساتين مع أولى اختلاجات الضياء.. رائحة جدران الطين غبّ المطر.. رائحة لوحات سارة قبل أن ينشِّف الهواء ألوانها.. رائحة ما بعد منتصف الليل أواخر الصيف.

الروائح وهي تفصح، وهي تُربك، وهي تسطو على الحواس نفاذةً، بليغةً، بطاقة سحرٍ لا تُضاهى.. تسحبك إلى حيث لم تحتسب، وتفتح لك نافذة للرؤيا.

* * *

على دراجة أبي، مرّة أخرى، برأسٍ حليق.

"عاقبني الآمر (زيان صفر)".

لم أسأله عن السبب، ولم يذكره لي، وأحسستُ أن في ضحكته سخرية مجروحة.

يدور حول النخلة في الباحة وقت الضحى.. تسأله أمي عمّا يرغب أن تطبخ له لوجبة الغداء.

"أي شيء (حجّبة)".

ومن غير أن يتوقف.. تقول:

"ما رأيك.. باميا بلحم مع الرز؟".

"الله.. ثريد الباميا".

تضحك سارة.. يرمقها بنظرة باسمة.

"وستأكل بيدك".

يقول عارف، فارداً أصابعه، مقلداً بحركتها طريقة الأكل باليد.. يردّ كمال:

"وأي أحمق يأكل الثريد بالملعقة؟".

يقول عارف: "أنا".

يرد كمال: "هنيئاً لك".

نضحك كلنا.

من بين سعف النخلة نفاجأ بفرخ عصفور يسقط، ويكاد يصطدم برأس كمال المارق على الدراجة لولا أنه يتجنبه في اللحظة الأخيرة.. يتوقف وينزل.. يأخذ الفرخ على راحته، ويمسد بأصابعه برقّة على ظهر الطائر الصغير.

"سأعيده إلى عشّه.. يبدو أنه غير مهيأ للطيران بعد"

يصعد النخلة بخفّة، محتضناً الجذع بيد واحدة، فيما يده الثانية ممسكة بالفرخ.. تصيح به أمي:

"دير بالك ابني"

رؤوسنا جميعاً مرفوعة، ننظر إلى الأعلى.. نراقبه.. يدور حول مروحة السعف، باحثاً عن العش.. يجده:

"هنا"

يخاطب فرخ العصفور:

"أخوتك أعقل منك.. وفي المرة القادمة لن أكون هنا لأعيدك.. سيكون صديقنا الهرّ بانتظارك، فاحذر".

يعيد الفرخ إلى عشّه.. ويقول بصوت عالٍ ليُسمعنا:

"التمر بدأ بالنضوج، ما أعذب رائحته".

يقطف من عذقٍ حبّة تمر صفراء يقذف بها عارفاً فتضربه على كتفه.. ينحني عارف ليلتقط الحبّة من الأرض، فيخطفها

حسن قبله.. يمسحها بأطراف أصابعه ويضعها في فمه.. تصيح به سارة:

"اغسلها"

"لا داعي"

تقول أمي: "ألا تعرفينه؟ هو هكذا دائماً، لا يبالي"

يهبط كمال على مهل.. تدخل سارة غرفتها.. تلج أمي المطبخ.. يخرج عارف وحسن من البيت.. يقول لي وقد غشاه حزن مباغت:

"أتأتي معي إلى المقهى؟"

يرفع دراجة أبي التي تركها على أرضية الباحة، ويركنها في مكانها المعتاد، في ظل الحائط.

كان نهار يوم جمعة.. أبي، في كل جمعة، يذهب إلى الجامع مبكِّراً، ليكون أول من يبدأ بتلاوة القرآن عبر مكبِّرات الصوت، قبل رفع الأذان.

وحين ينطلق صوته بسورة الرحمن، نكون أنا وكمال، خارج البيت، مغمورين بنور الشمس الحارّة.

* * *

لِمَ حلم كمال بالرواية؟ لِمَ أحلم بها أنا أيضاً؟ أترانا نعدّها الذاكرة التي تراوغ الموت؟ إلى أي مدى يمكن الوثوق بالذاكرة؟

إلى أي حدٍّ يمكن المضي مع ذاكرة لها التباساتها، في اختراع حكاية ـ حكاية تصلح متناً لرواية مؤجلة؟.

يعبث الأسى بالذاكرة، وينكِّل بها الخوف، لكن فكرة الموت وحدها تحفِّزها لتترمم.

كمال الذي عاش معي، في غرفة واحدة، منذ ساعة بلواه، وحتى الشهر الأخير قبل رحيله تزاحمني على صُوَرِهِ المخيّلة والذاكرة في الوقت عينه.. يحضر بقوة الذاكرة بعدما برقشتها المخيّلة. ويتثبّت في معارج المخيّلة كلما افترضت أنني أصعد نحوه على مدرج الذاكرة.. تتعاشق المخيّلة والذاكرة فأقول: لا بأس، طالما كنت بصدد كتابة رواية لا يهم فيها سوى ما يُقنع حتى وإن لم يحصل هناك، في الماضي؛ ذلك الذي نعرفه منه، وذلك الذي لا نعرف.

* * *

تُذهله السكينة البرّاقة لأول الصبح.. يقف في الباحة، رافعاً عينيه نحو أعلى النخلة.. يأخذ شهيقا عميقاً كما لو أنه يُشبع دمه وخلاياه برائحة الصيف.. ملامحه مسترخية منشرحة، طَلِقة، يبدو كمن يتهيأ لنهار حافل بعجائب ومسرّات.. ألبث على مبعدة أمتار منه. ومن غير أن يخفِّض نظره يخاطبني بنبرة تكاد تكون هامسة:

"سببٌ واحدٌ جيد يكفي أحياناً لنقول إن العالم مكان لائق لنوجد فيه".

"مثلاً".

"مثلاً هذا الهواء.. مثلاً هذا الضوء.. مثلاً ابتسامة امرأة.. مثلاً مذاق فاكهة تقطفها بيدك.. مثلاً رائحة تُسكرك.. مثلاً، مثلاً..".

"رومانسي في غير زمنه.. هذا ما أنت عليه".

"للأسف ليس على الدوام.. في بعض الأوقات سبب واحد سيئ يجعلك تكفر بالحياة".

"قريحتك الفلسفية متفتحة اليوم".

"ماذا لو نركض قليلاً؟".

"أين؟".

"من هنا، وحتى النهر".

"والفلسفة؟".

"ستركض معنا".

أضحك:

"انتظر لألبس حذاءً ملائماً".

ـ ٥ ـ

أكان كمال يرى النهاية؟. أتراه اختار خلاصه بتلك الطريقة التراجيدية المحزنة لأنه أدرك أن الأشياء راحت تلامس قدرها الذي لا رادّ له؟. هل أضاع كمال نفسه، أم ضيّعه الحبّ والحرب والوحدة، أم نحن الذين ضيّعناه من غير أن نفطن؟.

بدا في الحلم كائناً من هواء، شفّافاً ومرئياً، يمخر بسفينة صغيرة بلون الحليب عباب بحرٍ أبيض.. حين استيقظت كان صداع خفيف يمسك برأسي، وروحي متقبضة. وتمنيت أن أبكي، عارفاً بأن دموعي الحبيسة لن تتفتق بيسر.

عتمة الغروب تنتشر خلل ستائر النافذة المسدلة، فيما يكسر الصمتَ صرّارُ ليلٍ لا يكف، وهدير المروحة السقفية الرتيب.

في الباحة سألتني أمي:

"ما لكَ؟"

قلت: "رأيته في الحلم"

ولم أقص لها حكاية الحلم؛ تلك السفينة، وهو كالهواء، وماء البحر أبيض.

أخبرتها بأني لا أتذكر سوى أنه كان هناك.، فلم تلحّ. ورحتُ أنا أفكر؛ أين كنت أقفُ حيث هو في سفينته الغريبة.. لم يكن بمقدوري مخاطبته.. البرزخ الذي بيننا كان عصيّاً.. أنا غارق في الخوف والذهول، وهو ـ وقد رأيته بوضوح بالرغم من أنه كان من هواء ـ بعدما قبض على لحظة الأبدية، حزينٌ جداً، ووحيدٌ جداً.

عودة الكراكي

- ١ -

في مجلس الفاتحة قال أبي للشيخ عبد العليم:

"لم تُخف عنّي العلامة.. كنتُ متعباً فنمت بعد صلاة العصر.. رأيته يسبح في اللجّة.. ماء مكفهرّ غاضب، والوقت غروب.. وكان هو يقاوم باستماتة ضد التيار.. كان يقترب مني وأنا على الشاطئ.. أمدّ يدي غير أنه يبتعد في اللحظة الأخيرة.. أصيح به: ما الذي أغراك بالسباحة في بحرٍ كهذا؟.. كان يقترب ويبتعد. حاولت أن ألقي بنفسي في الماء لأنقذه إلا أن قوة عصيّة كانت تمسك برجلي وتشدّني للنقطة التي أنا فيها.. شرعتُ أردد (يا ساتر يا الله.. يا ساتر يا الله) واقرأ ما تيسّر من السُوَر القصار، وأيقظني صوت المؤذن (الله اكبر.. الله اكبر).. إنه المغرب.. جلست وقد بللني العرق وأنا أتعوذ، وأستغفر الله وأحمده.. وبعد أيام جاءوا بجثته.. الجندي المأمور حدّد ساعة استشهاده.. لقد كانت الساعة ذاتها التي رأيت فيها الحلم".

دلفتُ إلى الحرم الفخم.. كنت وحدي تحت القبّة والأقواس والزخارف المظفورة.. كنت وحدي مع عتق العبق، والرهبة التي تتخلل الهواء، والضياء المتسرِّب من النوافذ الصغيرة العالية... جلستُ متربعاً على سجادة من السجاجيد الحائلة الألوان انتظر دخول الشيخ عبد العليم. حتى إذا جاء قمت واقتربت منه:

"السلام عليكم".

رفع نحوي عينين رماديتين، ولكنهما خارقتان:

"وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. اجلس يا بني".

جلس فجلست:

"ابن من أنت؟".

سألني وهو يمسِّد لحيته البيضاء.

"أنا محمد، ابن الشيخ سعيد".

"ما شاء الله.. ما شاء الله.. تعال.. اقترب".

قالها بنبرة متهدِّجة.. دنوت منه فوضع يده الشائخة على كتفي.

"أنت لا تزورني يا محمد".

"والله يا مولاي أنا مقصّر في هذا".

"والآن، أجئت لزيارتي، أم أن في بالك أمراً؟".

استجمعت شجاعتي وقلت:

"الحقيقة يا مولاي زرتك وأنا مشغول بأمرٍ ما".

"قل.. عسى الله أن يوفقني في إجابتك".

"مولاي.. الأمر يتعلق بكمال ابن عمي رشيد الذي استشهد".

"يرحمهما الله.. يرحمهما الله".

"أنا الآن بصدد كتابة كتاب عنه، وقصدتك لأجل المساعدة".

"وكيف بإمكاني مساعدتك؟".

"عرفت أنه زارك مرّة قبل استشهاده".

"مرة واحدة؟ لا.. إنه كان يزورني باستمرار".

"هذا يعني أن باستطاعتك مساعدتي إن رغبت".

"زرني في بيتي غداً، بعد صلاة الظهر".

أخبرني الشيخ عبد العليم أنه لا يستطيع أن يعينني كثيراً .. قال:

"كمال، ائتمنني على أسراره.. كان يأتيني بين فترة وأخرى.. كان يحكي عن خطاياه دون مواربة أو تردد.. عن وساوسه.. عن قلقه.. عن شعوره بالعجز أحياناً.. عن آماله العريضة.. عن متاعبه في الجيش، وفي البيت أيضاً.. ما يفرحه، وما يحزنه.. ما يرضيه وما لا يرضيه.. يحكي لي عن تفاصيل المعارك التي خاضها.. عن المناخ هناك.. الحر والبرد.. المطر والرطوبة والشمس والماء العسر، وطيبة رفاقه وخبث بعضهم.. كان يشعر بالوحدة.. كان يحبكم وهو على يقين من أنكم تحبونه أيضاً.. كانت الدموع تسبق كبرياءه أحياناً.. كان يعتذر لي مخافة أن يكون قد أزعجني، وكنت أقول له على العكس يا بني، ظنّك ليس في محله، على الأقل فيك رائحة من أبيك المرحوم.. رائحة الأيام البعيدة.. كنت أقول له إنك تفجِّر فيّ الحنين. وكنتُ

أرشده.. أعظه.. آتيه بآيات من الذكر الحكيم، بأحاديث رسولنا المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم، وبقصص الأنبياء والصحابة والمؤمنين الصالحين.. لم أقسره يوماً على أمرٍ قط.. كنتُ أتكلم فقط، وكان يسمع ويناقش ويذهب.. يغيب أحياناً مدة طويلة ثم يأتي بشغفٍ وشوقٍ عارم. وفي كل مرة كان يحمل لي أسئلة، وخواطر، وحتى أحلاماً يطلب لها تفسيراً.. أحلامه كانت صعبة، معقّدة.. وذات مرة أسّر لي أنه يحسُّ بالوحدة.. بوحدة قاتلة كأن بينه وبين العالم ألف حجاب وحجاب".

صمت قليلاً، وأشار لي:

"اشرب شايك".

"أشكرك يا مولاي".

ارتشفت من قدحي بينما استأنف هو الكلام:

"سألني عن موت أبيه يرحمه الله.. قال سمعت من الآخرين ولم أسمع منك، أنت الذي شهدت موته.. قلت أنا لم أشهد موته، أنا وجدته ميتاً في دالية الجامع بعد صلاة العشاء، وما سمعته من الآخرين لا أستطيع الإضافة عليه.. قال أنت على الأقل يا مولاي لن تبالغ.. لن تقول ما لم يحدث.. ثم أن الراحة تغمرني عندما أسمع منك.

كان يأتيني بحنين جارف أبصره في عينيه، ودائماً كان يأتي مثقلاً بالهمّ.. بالوساوس.. بالأفكار.. بالأسئلة.. بالآمال.. حتى خطاياه كان يفصح لي عنها كما لو أنه كان سيتخلص من ذنوبه

وتأنيب ضميره إن اعترف لي بها.. كنتُ أنهره أحياناً.. أزجره.. أصرخ بوجهه.. حرام.. حرام.. ثم أعود وأربت على كتفه وأقول الله رحمته واسعة، تسع كل شيء.. هذا من طيش الشباب، تزوّج.. سأكلّم عمّك.. وكان يعترض.. لا.. لم يحن الوقت للزواج بعد.

كان طيباً شجاعاً.. في النادر ما كان يحكي لي عن مآثره هناك، في الجبهة، ويؤكد أنه ليس بطلاً بأي شكل، وأنه هناك لأن الأمر هكذا.. لكنه ذات مرّة قال إنه أخلى جندياً جريحاً بديناً في منطقة صخرية وعرة.. طلب منه رفيقه أن يتركه إلا أنه أبى ذلك.. قال له سأموت معك أو ننجو معاً، ونجيا معاً.. أحببته مثل ابني، واعترفُ أنه على الرغم من كل ما باح به لي لم يقل كل شيء.. لم يقل ما يجب أن يقوله. أو ربما لم أفهم أنا كل ما كان يقصده لأستطيع مساعدته فعلاً.. الله يعلم كم كنت أشمله برعايتي.. كان بحاجة إلى التعويض عن شيء مفقود، قد يكون حنان الأبوين.. دفء الانتماء إلى بيت الأبوين.. أرجوك، لا تقاطعني.. مهما يكن يا محمد.. مهما يكن فإن الإنسان لا يشعر بالراحة والأمان إلا في بيته.. في بيت أبيه.. كنتم له أهله.. هذا صحيح وحق.. أب حقيقي وأم فاضلة رعاهما الله.. وإخوة لا يجعلون بينه وبينهم أدنى حاجز".

خفتَ صوت الشيخ عبد العليم وكأن خاطراً عابراً داهمه، ثم علا:

"يشهد الله أنه لم يشتكِ منكم.. على العكس.. كان يشعر بثقله عليكم.. قلت له إنك واهم يا كمال، وهذا الذي تشعر به هو ممّا يُلقيه على قلبك الشيطان.. ستنتهي الحرب، وستعود إن شاء الله وستعمل وتتزوج وتنجب أطفالاً.. لمَ لا؟ ورأيته يبكي.. وضعت يدي على كتفه وقلت استعذ بالله وألعن الشيطان.. أنت رجل محارب.. والدنيا أوسع، بفضل الله، ممّا تظن. وإذا لم تكن مرتاحاً في بيت عمّك فبيتي مفتوح لك".

تنحنح الشيخ عبد العليم، ورشف قليلاً من الماء، وقال:

"لقد شخت يا بني، والزمن كما تعلم يقرض الذاكرة.. لا أستطيع استحضار كل ما قاله لي. ولا أستطيع إخبارك عن كل ما قاله لي. وخلّ الله بين عينيك وأنت تكتب عنه.. لا تقل كل شيء.. أعطِ عنه صورة نقيّة فروحه كانت نقيّة.. يا بني اكتب عنه.. أنت تعرفه أكثر ممّا أعرفه أنا.. أنت عشت معه، وتعرف أصدقاءه وأسراره، وأشياء عن سلوكه.. أما الأسرار التي ائتمنني عليها، فلا ترجو مني أن أعلنها لك.. أنا رجل مؤمن أخاف الله".

بان الإرهاق على الشيخ عبد العليم، وأيقنت أنه قال لي كل ما يريد أن يقوله، فاستأذنت منه وخرجت.

- ٢ -

لمّا بدأت أولى ثمار حسن بالنضوج في حقله، وقدّم عارف أوراقه للعمل مهندساً، وحصلت أنا على وظيفة في دائرة المصرف قلت لأبي:

"أبي.. أريدك أن ترتاح الآن".

"كيف؟".

"أن تترك العمل في المطحنة".

"أتراني غير صالح الآن إلا للموت؟".

"لا يا أبي.. ليس هذا قصدي".

"اسمعني يا محمد.. منذ أربعين سنة أو أكثر وأنا أعمل في هذه المطحنة.. حينها كنت شابا صغيراً. وفي كل يوم منذ أربعين سنة وأنا أستيقظ قبل الناس.. أذهب إلى الجامع لأصلّي وأعود لأتناول فطوري، ثم أركب دراجتي الهوائية وأذهب إلى المطحنة، حتى أدمنت رائحة الطحين، وسأختنق إن لم أشمّها.. أتراك تفهمني؟".

* * *

وجدتني في مكتب أنيق متمتِّعاً بتكييف مركزي للتهوية، وحولي وجوه غضّة تناور في معترك من العطور والأصباغ، والأصوات المنغّمة وراء نقاب من الحياء الموروث والمفتعل.. رقعة مفعمة بالنشاط في غابة من الأرقام والأوراق النقدية

ودفاتر التوفير والبطاقات والشيكات والأرصدة والحسابات الجارية والحوالات، الخ.. سبع ساعات من العمل يومياً قلّصت آماد الفراغ، وأوجدتْ نظاماً آخر لإشكالية الحياة، وجواباً أولياً لسؤال الكيفية.

"ألكَ خبرة سابقة في العمل؟".

"لا، إطلاقاً".

"ستتعلم خلال مدة قصيرة.. عملنا متعب وممتع في الوقت نفسه".

فارهة بقوام خيزراني، وابتسامة جذّابة، وثقة بالنفس تقترب من الغطرسة.

"ستدوخ".

هل سأدوخ حقاً؟ هل أنا بحاجة إلى تجربة دوخة أخرى؟.. قلت:

"لا بأس.. أعطوني عملاً مدوِّخاً.. لي رغبة في أن أدوخ؟".

في عينيها نظرة مشاكِسة، حين ترفعهما تحسُّ كم لهما من سطوةٍ وقدرة على النفاذية.

"كما تريد".

قامت وتركت مكتبها وجاءت ووقفت إلى جانبي.. قلت في دخيلتي أنتِ لست بحاجة إلى هذه الكمية كلها من العطور أيتها الحلوة.

قالت:

"اضبط لي نقل أرقام ومبالغ هذه الشيكات إلى البطاقة".

وأومأت برأسي موافقاً، واستغرقتني الأرقام لما تبقى من وقت الدوام.. وكنا خارجين من الدائرة حين قالت:

"سلّم لي على سارة".

"أتعرفينها؟".

"طبعاً أعرفها.. كنا معاً في المدرسة حتى المرحلة الثانوية. وفي الجامعة المستنصرية كنت مع المرحوم كمال".

"حقاً؟".

"نعم.. كنت في المرحلة الأولى، وكان هو في المرحلة الأخيرة".

وبقيت لأيام أتساءل إن كانت خالدة تعرف أي شيء عن كمال.. وأعلمتها ونحن خارجان في ظهيرة قائظة من المصرف، عن مشروعي في كتابة رواية كمال.

"وستكتبها أنت؟".

"لِمَ لا؟".

"أتقدر؟".

"أحاول".

"رائع".

"أكنتِ تعرفينه؟".

"يعني.. من بعيد.. كان دائماً بصحبة فتاة زميلته".

"ما اسمها؟".

"لا أعرف".

وقدرت أن خالدة ليس بمقدورها أن تعينني هي الأخرى.. أما حكايتي معها ـ مع خالدة ـ فشيء آخر سيتطور ويتخذ اتجاهاً غير اعتيادي ليس هنا مجال سرد تفاصيله.

بعد شهر واحد من دوامي في المصرف جاء العم شاكر، موزع البريد في البلدة، وتنحى بي جانباً، وقال:

"هناك رسالة!".

"لي؟!"

"لا..".

"لمن إذاً؟".

"من امرأة..".

"لمن؟".

"لكمال..".

"ماذا؟!".

- ٣ -

عزيزي كمال

ها أنني أفاجئك مرة أخرى، وأكتب إليك، ودافعي، في هذه المرّة، ليس نزوة عابرة، أو رغبة في تزجية الوقت، أو محاولة لخداع نداء الحنين في القلب. والحنين كان، على الدوام، عبر سنوات فراقي للعراق، يثقل عليّ ويدميني ويتركني تحت وطأة الإحساس بانعدام المعنى والغربة والوحشة والخسران.. وكذلك الفراغ.. الفراغ الذي يعذّب الروح.. الفراغ البارد الذي يذكّر بالرحيل والموت. وطوال سنة بقيت مترددة في أن أكتب إليك أو لا أكتب.. خشيت أن تستخفّ بي، أو تتشفى من انكساري أو تشمت لأنني أقر لك بهزيمتي النهائية أخيراً، وأرفع أمام سطوتك التي توهّمت التحرر منها، الراية البيضاء. لكنني أخيراً كتبت لأنك، وكما عرفتك، تملك من الطيبة والقدرة على الغفران ما لا أملك أنا منها عشر معشارها.

حسناً يا كمال.. قد لا تصدّق أن كل قنبلة سقطت على العراق كانت تبكيني وتجرحني في الأعماق.. كنتُ أحسُّ أنها تمعن في تدمير ما تبقى منّي هناك، وتخريب حدائق طفولتي، وذاكرتي.

كنتُ أنا دائماً مغرورة وأنانية ولا أبالية وغير مهتمّة بالآخرين وشؤونهم.. هذا اعتراف متأخر، وصحوة. أما الآن فأشعر أن شيئاً ما قد تحطّم في داخلي، وأنني في طور التحوّل إلى امرأة أخرى.

أتراك ستصدِّق يا كمال إن قلت لك إنني خرجت في تظاهرة وصرختُ فيها بغضب هائج ضد وحشية أولئك الأوغاد الذين اجتمعوا ليقتلوا العراق.. أظنّك تبتسم وأنت تقرأ هذا، وتتخيّلني وأنا أرفع قبضتي وأهتف، فتقول: (معقول؟!).

أدركت- كما لو أن كائناً آخر ولد في أعماقي واحتلّني وراح يُطمئنني بأن العراق كما الشمس، كما النجوم، كما زرقة السماء، كما البحر، كما الله، عصيٌّ على الموت.

لماذا أطيل عليك ـ سنلتقي ونتكلم.. سأحكي لك كل شيء وعن كل شيء. وسأفصح عمّا في صدري من دون زيادة أو نقصان.. سأعود قريباً.. قريباً جداً، وسأرغمك ـ لا تقل ما زالت مغرورة ولها روح التسلط ـ على زيارة أماكننا القديمة، واستعادة تلك الصور الحلمية الخلاّبة.

أتذكرها؟. أنا لم أنسها قط.

سأعود، وستنتظرني..

أتعرف ماذا سيحدث لي إنْ لم تكن هناك بانتظاري؟

مها / برلين

* * *

بمَ يمكنني أن أعلّق على ما جاء في هذه الرسالة؟ وماذا باستطاعتي أن أفعل غير أن أضيفها وثيقة أخرى إلى عالم هذه الرواية. وعندما تجيء مها سأحاول أن أقابلها علّها تجد لي مساراً آخر لاستئناف كتابة روايتي؛ (رواية كمال).

ـ ٤ ـ

وأنا أعرض حكاية كمال مع هذا العالم أجدني إزاء الأسئلة الوجودية الصارخة؛ أسئلة الذات، والحياة، والحرية، والآخرين، والغربة، والمصير، والموت.

من وما الذي كان يرسم قدر كمال؟ ولماذا اختار أن يقذف قنابله بدل أن يرفع يديه ليضمن العودة سالماً في يوم ما؟.

ما كان كمال يائساً، في أي وقت، على الرغم من محطّاته المريرة كلها. وما كان متهوِّراً حد التورّط في مغامرة غير محسوبة.

أتراه اختار، في لحظة صافية، وبوعي في ذروة صحوه، أن يكون حرّاً، عارفاً أنه حرّ، وعارفاً، أيضاً، ماذا يصنع بهذه الحرّية؟. أليست الحرّية، في نهاية المطاف، هي أن تقرِّر أنت مصيرك بشجاعة؟.

لا شك في أن أولئك الأمريكان، الذين رأوه، وسمعوا صرخته الغاضبة، ونجوا من قنبلتيه ما زالوا يتذكرونه الآن خجلين من أنفسهم، وإلا فأي صنفٍ من البشر هم؟.

ستُّ طائرات مروحية، وعشرات من جنود المارينز المسلّحين بآخر مبتكرات التكنولوجيا من أجل أن يموت كمال!!! فهل مات كمال؟.

"حلم حياتي أن أكتب روايتي".

ألفاني ابتسم فأردف:

"حقاً، فالرواية تساوي الحياة، ومن لم يترك رواية كأنه لم يعش، ومن ترك رواية تُقرأ وتُحكى فإنه لا يموت".

لم تنتهِ رواية كمال بعد. فكمال أبداً سيحضرُ في عقلي وذاكرتي وأفكاري في سبيل إكمال روايته. وكلما نأى قليلاً أو كثيراً سيعاود الرجوع مرة أخرى وأخرى كما الكراكي. لذا فإن هذه الرواية ستبقى تكتبني ما حييت.

انتهت

الفهرست

إهداء..... ٥

المفتاح ٧

الصندوق مدار أول ٤٣

أوراق الماء.. أوراق النار ١١٣

أوراق العشق.. أوراق التيه ١٥٩

مدار الكلمات.. مدار الأمكنة ٢٠١

مدار الرائحة ٢٢١

عودة الكراكي ٢٢٧

الفهرست ٢٥٣